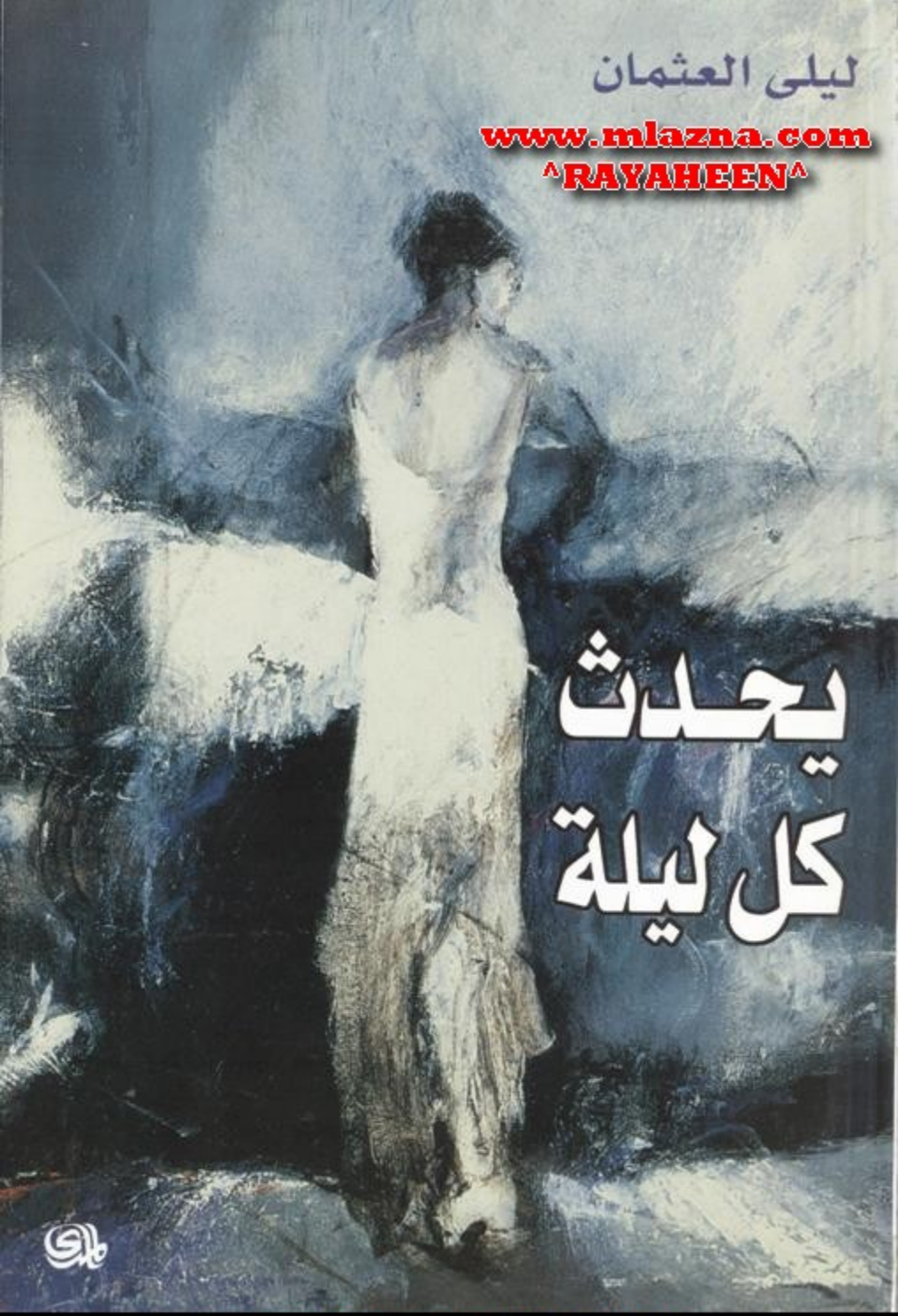

www.mlazna.com-RAYAHEEN

لوحة الغلاف : جبر علوان

يحدث كل ليلة

تناهى إليّ نشيج سلوى الخافت . تشابك وخيوط عويل أمي الذي كان يدخلني كالحريق . أدركتُ أنني أغضبتها . دنوتُ إليها . غمست وجهي في غابة شعرها . تمنعت قبل أن تستدير . لم يكن اللهاث قد هدأ بقلبي بعد .

استفسرتني بوجهها المغسول بالوجع . وصوتها المعبق بالقلق .

ـ هل أنت متعب ؟ ؟

استشاطت أنفاس ندمي . أطلقت آهات جارفة . فزعت إليّ ، ارتمت على صدري لتوقف العاصفة .

«لاهثاً ارتميت إليه . شددته إليّ . تقوّض جسده في حضني . هرسته إلى صدري الذي تلعثمت صرخاته . تهاوى رأسه رخواً فوق كتفي . أمسكت به بيديّ المنتفضة في عروقها الدماء . عانقت وجهه الذي تقيأ دفأه وسكتته البرودة . حدقت في عينيه المنطفئتين أستنطقهما بوجعي ، لماذا يا فوّاز ؟ ؟ولا إجابة سوى الصمت المسدول من برودة الجسد انسربَ إليّ وأثلجني .

كانت سلوى مرتكزة عند الباب ناشجةً بالدمع ترقبني . زحف سؤالي إليها دون معنى ،

ـ كنتِ هنا! ؟

ركضت نحوي . انهمرت على الجسد الغائبة عنه الروح . تلوّنت مثلي بالدماء . تعرّى صوتها من نعومته المعتادة ،

ـ جئت أزور خالتي .

كان فزعها المهوّم في القرار ينبعث حرائق من عينيها . أبعدتها بكوعي آمراً أن تتجنّب رهبة المشهد . تباطأت قبل أن تتوكأ شجنها المرّ وتخرج» .

ISBN => 2-84305-242-4
EAN => 9782843052422

www.mlazna.com-RAYAHEEN

منشورات

٧٨

اسم المؤلف : ليلى العثمان
عنوان الكتاب : يحدث كل ليلة
الناشر : المدى
الطبعة الأولى : ١٩٩٨
الطبعة الثانية : ٢٠٠٠
الحقوق محفوظة

Author : Laila Al-Athman
Title : It Happens Every Night
Al- Mada : Publishing Company
First Edition 1998
Second Edition 2000
Copyright © Al-Mada

دار المدى للثقافة والنشر
سوريا - دمشق صندوق بريد : ٨٢٧٢ أو ٧٣٦٦
تلفون : ٢٧٧٦٨٦٤ - ٢٣٢٢٢٧٥ - ٢٣٢٢٢٧٦ - فاكس : ٢٣٢٢٢٨٩

Al Mada : Publishing Company F.K.A. Cyprus
Damascus - Syria , P.O.Box . : 8272 or 7366 .
Tel: 2776864 - 2322275 - 2322276 , Fax: 2322289

All rights reserved. No parts of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system , or transmitted in any form or by any means , electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without the prior permission, in writing, of the publisher.

ليلى العثمان

يَحدُثُ كُلَّ لَيْلة

www.mlazna.com-RAYAHEEN

الإهداء

إليك ...

يا الذي بكل الحواس أعشقك

لا أبوح باسمك وعزائي ...

إنك تعرف نفسك ...

ليلى

١٩٩٧

www.mlazna.com-RAYAHEEN

الحب
في اللحظات الأخيرة

جسده الذابل ، اصفرار وجهه ، ركود حركته ، أنفاسه المتلاحقة التي يستلها بمشقة ، كل شيء يوحي أنه يعاني تعب اللحظات الأخيرة . ولكنه السؤال المعتاد الذي لا بدّ منه :

ـ كيف أنت اليوم ؟

تلجلجت الكلمات بين شفتيه ، بضعف أجاب :

ـ ليس كما تحبين .

دقائق قليلة قاومت فيها غصّتي وحزني ، شعرت أنني غير قادرة على البقاء أمام حالته المؤلمة ، استأذنت ، دنوت منه ، كانت ذراعه المتورمة تسقط بلا حياة فوق ذراع الكرسي ، لامست أطرافها ، داعبتها ولا أدري كيف جرؤ لساني وأطلق الكلمة :

ـ يدك باردة .

دحرج نظرة حانية إلى عينيّ ، وبتثاقل شديد حرك لسانه ، أوجعني صوته المعبأ باليأس :

www.mlazna.com-RAYAHEEN

ـ الموت يا عزيزتي . يبدأ من الأطراف .

ماتت الكلمات في حلقي ، لم أعرف كيف وماذا أقول! حاولت وكأني فراشة حائرة في قلب زجاجة . رتقت انفعالي بكلمات متداخلة مشوشة ضلّت كل معانيها . وتفاديت النظر إلى عينيه ، لكن إحساسي لم يغفل نظرته المركزة على وجهي وكأنها ترجوني أبقى لبعض الوقت . سارعت أهرب خشية أن يدفق حزني إلى عينيَّ . لم أشأ أقهره بضعفي ودموعي فيشعر وكأنني أودعه للمرة الأخيرة .

رافقني وجهه طوال النهار . حاولت أتهرب منه وأنا أجوب الساعات الطويلة . لكن الذكريات اصطادتني ، وأزهرت أمامي تلك اللحظات الشقيّة الماضية في خواصر الذاكرة .

تذكرت شكله القديم . القامة الممتدة بعنفوان ، الصدر العريض الذي اشتهيت ذات يوم أتدفأ بين عظامه ، الكف الرجولية التي تصك على كفي مرحبة فيفتح نوافذ رغبتي نحو شفتيه المبتسمتين ، أتمنى لو أقضمها بكل جوعي وأشرب حلوهما المخزون .

السنوات تمضي ، ريحها ما بين الفصول تطرح الوجوه بالدرب . مصادفات تحمل الحكايا الصغيرة . الرعشات المؤقتة ، الأحلام البريئة التي تواريها دفاتر الذكريات المنسية في الأركان الصامتة . وجهه وحده لم يذب من ذكرياتي ، ظل يناوشني بين وقت وآخر فأخترع الأسباب لألتقيه وأهدي لكفي منه تلك اللمسة التي تفجر ضياء يشع في مساحة قلبي ، وسؤال حائر يتقافز : هل تراه يحس بمشاعري ؟ هل تسري رعشة كفي إليه تنبئه أن التي تسعى إليه إنما تأتي مدفوعة بذلك الشعور الجميل والحلم الأجمل ؟ ؟

في كل مرةٍ أزور مكتبه المكتظ بالزائرين والمراجعين ، أدخل وأجراس

قلبي تقرع فرحاً ، يرحب بي ، يرشني بكلمات الود والإعجاب ، لكنها لا تمنحني الشعور بخصوصيتي ، كنت مجرد امرأة كسائر النساء العابرات ، ينتهي اللقاء ، يذوب فرحي كالملح ، أخرج ولا يبقى مني سوى رذاذ عطري الذي تذيبه أنفاس الآخرين .

لم أستطع أن أنساه ، أي امرأة لا تقوى على نسيان الرجل الذي لا تحقق الوصل معه ، يبقى في الصميم ، تبقى حسرة الحرمان هائجة ومائجة ، لا تخلد إلى الراحة حتى وإن أرخت سدائل جفونها ، تظل ما بين الأمل وانحناءة الأيام وشحوب السنوات تحلم أن تحقق وعداً ، تنتظر لحظة تعري بلادتها ، تكسر حواجزها لتتوالد المحاولات ، لعل الجدار السميك ينهار ، لعل البحر يضيق ، يدفأ الرمل ، يصير فراشاً يحتويها هازجاً بالندى .

لكن السنوات لا ترأف بالحلم ، تسرقه ثمرة ثمرة ، لا تنتظر عسر الولادات المؤجلة ، زحفتْ إليه ، أضمرت بساتينه ، شربت رحيقها ، اقتاتت من ثمار جسده أشهاها . جرؤ المرض ، عصف بالعمر الشهي ، تقوست قامته قبل أن ألتوي بناري المتوحشة عليها ، هزل الوجه قبل أن أرش بدائع لهيبي نجوماً عليه ، تجعدت الكف قبل أن أعابثها فتدس أطرافها الثائرة في تفاح جنتي .

سقط في الوحدة العائمة ، غابت سنوات ائتلاقه الجميل ، تكوم مقعداً على كرسيه البارد ، فاقداً نصف الحياة ، وظل حبي مشرئباً بقامته والعمر إلى غروب .

يعرف الآن وأنا أحمل له زهوري أنني أجيء لا كما كنت تلك الغريبة عنه ، بل المرأة التي أحبت بصمت وانتظرت بصمت ولاحق الزمن حلمها حتى كبا ، فلم يتبق من شيء غير هذه الزيارات الأسبوعية التي توجع القلب .

كان لا بد أن يعرف ، وأشرق ذلك النهار المناسب الذي خلعتُ فيه بردة صمتي :

كان يجلس وحيداً ، يقلب الصحيفة اليومية ، دخلت فألقى بها جانباً ، وقف ، متثاقلاً ليستقبلني . لم يكن المرض قد تمكن منه بعد . أرحت زهوري على الطاولة القريبة . اقتربت منه ، مد كفه ، تجاهلتها . اندفعت إلى وجنته ، ألصقت عليها شفتي ، ارتعش وكأنه يلامس امرأة لأول مرة ، ابتعدت ، حدقت إلى وجهه ، أستشف تأثير مبادرتي ، رأيت وجهه عارماً بالفرح ، تشجعت ، عدت للوجنة الأخرى أكثر حرارة .

قبل أن أبتعد شدتني ذراعاه ، لم أتردد ، ارتميت بينهما في لحظة أشبه بالغيبوبة . زرعت لون شفتي البرتقالي على شفتيه ، حملتها توقي العنيف وصفو شعوري وكأنني فقط في تلك اللحظة قد حررتها من أغلال الصمت . هبط إلى كرسيه واهناً كأنه آدم يهبط من جنة لا تتسع لسعادته .

جلست . فتحت له دفاتر الحب المرشوشة بالصبر وكأن البرق شطر الغيمة فانهلت بوحاً خصباً .

لعثمته المفاجأة ، وبعد أن استراح تهادى إليَّ صوته حزيناً لا يخلو من كبرياء :

ـ جئت متأخرة . لقد عافني الزمن .

قنوط بعثر محاولتي أن أزف لقلبه أملاً وانتعاشاً . شعر وكأنه أحبط المحاولة . أهداني ابتسامة عذبة . أشار لمجموعة كتب متراصة . حدد لون أحدها :

ـ ناوليني إياه .

فتحته ، استل من بين الطيات الصفراء صورة ، قدمها لي ، تأملتها :

ـ امرأة جميلة .

استراح وجهه :

ـ وجدتها اليوم مصادفة في الكتاب .

ـ حب قديم ؟ ؟

ـ أعطيته أبهج أيام الشباب . ماذا أعطي اليوم ؟

حول عينيه كَمَنْ يحبس حسرة ، أشفقتُ عليه ، سحبت كفه ، تشممت رائحتها الحميمة ، مسحت وجهي كله عليها . همست :

ـ يكفي أن أراك وقد عرفت مخبوء قلبي الذي صبر .

ماجت سعادة طفيفة على وجهه . غازلها عرقٌ خفيف ، تفصّد سريعاً ، ضحك قبل أن يقول :

ـ يا لغرابة الزمن!

ـ تحقد عليه ؟

تألم وجهه . عصر كلماته :

ـ هل يفيد النهر الجاف هطولُ المطر ؟

أصررت أبذر شيئا :

ـ في الأقل يبلل الأحجار الصغيرة فتنبت عليها الأعشاب .

ذرف عتابه الجليل محدقاً إلى وجهي :

ـ لماذا جئت متأخرة ؟

قفزت إليه . تكومت بين ركبتيه مثل قطة تتمسح بسيدها ، أرخيت رأسي على ركبتيه ، تسربت أصابعه إلى شعري ، ثم إلى وجنتي ، هرسهما تناثرت حزمة ضوء إلى عمقي .

خرجتُ ذلك النهار غير نادمة أنني صارحته . تصورت أن شمساً جديدة ستبزغ في مشاتل روحه ، وأن حناني سيتمدد عريشة خضراء في شراييه ، تشحنه بقوة يتحدى فيها المرض ، يعاند الزمن ، يحلم مثلي .

لكن الزمن كان أقسى . ظل يتآكله فأراه يذوب أمامي في كل مرة أكثر من المرات السابقة .

يعرف الآن حتى وهو يصارع ثقل لسانه ويعلن أمامي أن الموت يبدأ من الأطراف ، يعرف أنني أجيء امرأة غير كل النساء ، لا يعرف سري أحد سواه . أحمل له زهوري التي تؤكد له أن الحب سيبقى حتى اللحظات الأخيرة .

١٩٩٦

للإنتظار وجوه أخرى

www.mlazna.com-RAYAHEEN

لن يسمعني أحد . حتى لو شحنت كل قوتي وأرسيتها بحنجرتي وصرخت . تذكرتها . صديقتي التي تعطل بها المصعد ذات يوم . وكيف استخدمت حذاءها ذا الكعب العالي تطرق به الباب حتى انكسر الكعب بفردتيه ولم يسمعها أحد . انتظرت في سجنها ثلاث ساعات قبل أن يتم الافراج عنها ، كانت فرصتها ذهبية حين مَر أحدهم يستخدم المصعد ، أدرك أنه معطل ، طرق عليه محاولاً . فهبت من الداخل تجيب بطرقات عنيفة متوسلة .

فرصة نجاحي ضئيلة . فقد غادر الرواد صالة العرض الكبيرة . أغلق الحراس الأبواب . وبقيت وحدي في الحمام!

استسلمت بشيء من الرعب أولاً ، تدرج إلى غيظ مكتوم . ثم بدا لي الأمر محزناً . شيئاً فشيئاً تحول إلى ـ كوميديا ـ أتأمل فصولها منخورة الأعصاب بانتظار أن تُسدل الستارة وأتحرر .

أغلقت غطاء المرحاض . جلست عليه . وأخذت أتأمل حقيبتي الجلدية الكبيرة معلقة على الشماعة الملصقة على باب الحمام . أحسها مشنوقة مثلي ، حائرة ضجرة ، لكنها أيضاً مستسلمة .

مثل التائه في الصحراء أحسست المسافة بيني وبين الفضاء الخارجي باتساع المدى . شيء واحد يطمئنني أن صحراني لا تخلو من الماء . أمامي الصنبور ينزّ قطرات بين لحظة وأخرى . أما الجوع ، الذي قد يفاجئني ، فأمره بسيط . في حقيبتي سأجد مؤونة .

بالأمس لحقت بصغيرتي حتى باب المدرسة . ناولتها لوح «الكت كات» وحفنة من البسكويت المغلف كي لا تجوع أثناء الرحلة التي ستقوم بها طالبات المدارس للمشاركة في استقبال ضيف الدولة الرسمي . لكنها وبعد أن ابتعدت عنها ركضت لتعيد الأشياء بإصرار :

ـ سيعطوننا وجبة غذاء . دعيه معك . قد تحتاجينه .

هل كان وعيها الصغير حدس بالذي سيواجهني اليوم ؟ الآن تساهم دون أن تدري بحمايتي من الجوع حتى انفراج الأزمة . هي ليلة واحدة لا بأس أن أقضيها جالسة . مستيقظة يقرضني الوقت والقلق .

أرسيت كل تفكيري باتجاه حقيبتي المدلاة . بدأت استعرض محتوياتها الكثيرة . شيء مفرح أن تكون بداخلها مقالات لزميل ألح أن أقرأها رغم قناعتي بأنه ليس كاتباً جيداً . أيضاً يوجد مظروف قدمه لي شاب موهوب سبق أن قرأت له فتشجع يهديني المزيد . هناك قصاصة من جريدة فيها موضوع لفنان كبير يحكي رحلته مع الفقر ، والحلم ، والأمل حتى وصل وتربع على عرش الطرب . سأجد إذن ما أتسلى به وأكسر رتابة الساعات وأعناق الدقائق .

لديَّ في الحقيبة قلمان . قلم عادي رخيص الثمن للاستعمال اليومي ، وآخر «شيك» رائع أهداه لي حبيبي ذات يوم مع مجموعة من أوراق الرسائل الملونة . يوم دخل حاملاً الكيس فرحت فرحاً مجنوناً ما استطعت أبوح

بسره خشية أن يتصورني أغريه بالزواج مني بطريقة غير مباشرة . لكنني يومها أحسست وكأنه رجل بيتي يحمل إليَّ الأغراض التي طلبتها منه .

أذكر كيف حضنت وجهه الأسمر بين كفي وكأنني أحضن قمراً انحدر للتو من السماء معطراً برذاذ الغيم . تلألأت عيناه . همست شفتاه .

ـ أحضرت لك هدية . أنا المستفيد منها .

ـ كم أشكرك .

هدهد امتناني :

ـ أنا الذي يجب أن أقدم الشكر . أعرف أن هذا القلم سيصب نزيف قلبك النبيل وحلو مشاعرك . ويهديني رسائل دافئة .

ضحكت :

ـ إذن بضاعتك ترد إليك!

من قلبه جلجلت الضحكة كارتجافة الناي :

ـ عادة ترد البضاعة قبل استعمالها . لكن استعمالاتك للبضاعة رائعة .

تذكرته ، ووحدتي تكاد تلتهم حتى نبض قلبي . أخذت شفتاي ترتلان اسمه . هاج بي الشوق لشفتيه الرحومتين تنثالان على شفتيَّ العطشانتين كثغر طفل يلعق حليب أمه .

سأكتب له . يا للسعادة . ففي حقيبتي مفكرة جديدة . ولديَّ متسع من الوقت أخضعه لقتل كل شعور بالملل . سأستنفر أصابعي تمارس لعبة الإفصاح والتشكي من حالتي القائمة .

حمدت الله! كل شيء لديَّ في الحقيبة . عندما استعرضت المحتويات

فاجأتني نوبة ضحك بدأت مثل همهمة خافتة ، ثم ارتفع الرنين . أطلقت العنان لصوتي ما دام لن يسمعني أحد فلم لا أضحك بصوت مرتفع ؟ وجه زميلي الذي دأب يستعير من سجائري هو ما أثار ضحكي . تذكرته يفتاظ دائماً من حجم حقيبتي . يتأفف متسائلاً :

ـ حقيبة هذه أم خرج حمار ؟

شرحت له أنها بالكاد تحمل أشياني المهمة . لكنه سخر قائلاً :

ـ أنتن النساء تملأن حقائبكن بأدوات الماكياج .

يومها قلبت حقيبتي . أفرغتها أمامه :

ـ انظر . وحاسبني إن لم تجد فيها غير «عدة الجمال» .

لم يتردد في استعراض الأشياء . وأقتنع بأن كل ما فيها ضروري . ليته الآن معي . يتأكد بنفسه أن كل شيء يفيد وقت الشدة . وهل من شدة أسوأ من السجن داخل حمام ؟ ؟ المريح أن لونه أبيض . سأكون في مأمن . لن ينتهك عزلتي صرصار جريء . هو أيضاً نظيف معطر على غير عادة الأماكن العامة والرسمية . ربما لأن القاعة جديدة وكل ما يتبعها جديد حتى ورق التواليت لم يستخدمه أحد . ضمنت أنني لن أكون بحاجة لمنشفة .

شيء واحد ينقص المكان . فراش أنام عليه... رفرف قلبي يشتاق لفراشي الذي ظل بارداً ، وقاحلاً حتى استل الحب خيوط قلبي المحكمة وبدأ الدفء ينزلق إليه حين أستعيد وجهه وأحصد الأحلام . أفرغ في النار ثلجي وأنام . هو الآن لا يدري كيف أقضي ليلتي! كيف أفارق صورته المرسومة على الوسادة... ورائحته المبذورة في خلاياها .

بدأ إحساس بالوحدة يتسرب إليَّ . قاتلٌ هذا الشعور . تتسلّل معه

احتمالات ما قد يدور في أذهان أهلي . لا بد أنهم قلقون . لم أعتد الغياب دون إبلاغهم بمكاني . فكيف وهي المرة الأولى التي أبيت فيها خارج حدود البيت ؟ هل سيبلغون الشرطة ؟ أتصور أنهم سيتصلون بالأصدقاء وسيكون السؤال صعباً ومثيراً . ماذا سيتصور الناس ؟ امرأة تغيب عن بيتها وتشغل بال أهلها ؟ ما أكثر الخواطر التي ستقفز إلى الأذهان :

«ربما هي في خلوة مع حبيب تتلوى بين أحضانه» .

احتشدت الاحتمالات التي سترشقني بسوء الظن . أخذت أصغي لفحيح الحقد والسموم تنفذ إلى رأسي وتدق عليه كالمسامير .

سيظنون كل شيء إلا أن المرأة المتهمة سجينة داخل حمام! آه :

«كيف بمقدورنا أن نروض الناس كي لا يكونوا ذئاباً ؟»

كيف حدث هذا الذي سيجلب الشؤم والعار ؟ كيف بلحظة يتغلب الخوف على الإنسان فيتصرف دون وعي ليدرأ عنه الخطر .

عندما دخلت الحمام . وأحكمت المفتاح علقت الحقيبة فاصطدمت بأكرة الباب . لحظتها داست قدمي على شيء ركلته مفزوعة . وعلى مساحة الأرض الناعمة سبح خارجاً من شق الباب . لم أدرك فظاعة فعلتي إلا حين أردت الخروج ولم أجد المفتاح .

حقدت على العاملين . هكذا هم دائماً لا يفكرون بتفقد الأمكنة قبل الخروج ، كل ما يهمهم أن تفرغ من زوارها ليرتاحوا .

عليَّ أن أتحمل النتيجة . وأفكر بحل سريع .

انبطحت على الأرض . من شق الباب حاولت أتلصص على المفتاح

www.mlazna.com-RAYAHEEN

لأخترع طريقة أشده بها لكن الظلام الدامس في الخارج لم يسعف نظري ، عدت لمكاني أتكىء على خيبتي لأستنجد بحل آخر .

لِمَ لا أصرخ ؟ أفعل ما فعلته صديقتي وأطرق الباب بحذائي رغم أنه بلا كعب! كدت أفعل لولا أن خاطراً مرعباً اخترق ذهني وأرعبني . ماذا لو كان أحد الحراس هنا! قد يأتي . ولكن! ما الذي يضمن أنه لن يفكر بإنقاذي قبل أن يجدها فرصته الذهبية لإشباع رغباته المكبوتة!! هنا الفضيحة!

من تراه يصدق أنني امرأة محبوسة بغير إرادتي ؟ ؟... انتصبت مانشيتات الصحف ترعدني :

«امرأة تلتقي عشيقها الحارس في حمام صالة للفن!»

تراجعت عن فكرتي . السجن أرحم . والانتظار المرّ أشهى من حرية تفوح لها رائحة ظالمة .

الصبر لا بد من الصبر . واحتمال الوحدة يشمت بي . وفراغي الذي يهزأ مني ويصدّ عني كل رغبة أن أفتح الحقيبة . وأقتل الوقت بالقراءة أو الكتابة .

النعاس يتناثر على جفوني . ولا أدري إن كنت حقاً قد غفوت . وميض الصباح يطرق النافذة العالية المحاطة بأضلاع الحديد . هو النهار إذن يتهيأ لاستقبال أقدام البشر ، وأحلامهم ، ومتاعبهم ورائحة عرقهم . ومعه ستبدأ رحلتي نحو الحرية .

تناهى لسمعي صخب الأقدام في القاعة . خلعت حذائي . شحنت كل طاقتي وطرقت على الباب بعداء صاخب . هرولت الأقدام نحو الأصوات :

ـ من بالداخل ؟

ـ أنا... أنا...

أجبت بصوت رغم عنفه يترقرق بالبؤس ، والحزن ، والفرح المخبوء .

ـ هل علق المفتاح بالداخل ؟

السؤال غبي . والإجابة صراخ :

ـ بل هو في الخارج . ربما تحت أقدامكم .

بعض فوضى . حركات بحث سريعة . ثم سمعت المفتاح يندس في الثقب يدور دورة واحدة . ويشرع الباب . صوتي يؤنب العامل بغضب لا يخلو من كوميديا منظري المفزوع :

ـ كيف تخرجون البارحة قبل أن تتفقدوا المكان! هكذا أنام ليلتي في الحمام ؟

الرواد القلائل المتوافدون إلى الصالة تحلقوا حول مشهد المأساة الضاحك . لم يتمالكوا . كاد يترنّح بعضهم من الضحك بينما أتطاحن غيظاً .

صوت مسؤول يوجه تهمة مبطنة :

ـ لم اختبأت في الحمام! ؟ كان يجب أن تطلبي نجدة!

نجدة ؟ ؟ كيف ؟ ؟ لوحت بذراعي معترضة على سؤاله ، فانزلقت حقيبتي من كتفي . انسكبت منها الأغراض الكثيرة . اقترب أحدهم يساعدني في لملمة أشيائي المبعثرة . فجأة! أطلق قهقهة ساخرة :

ـ لديك هاتف . لِمَ لم تتصلي بأحد ؟

عبرت ضبابة سوداء أمام عيني . لعنت غبائي وكدت ألعن غباء أهلي الذين لم يحاولوا الاتصال بي . لكنني تذكرت على الفور أن يدي اطفأته حين

بدأ المسؤول الكبير يلقي خطبته العصماء مرحباً بالفنانة التي تعرض رسومها المائية ذات الألوان الربيعية وعصافيرها تحلق بأجنحتها نحو الحرية .

١٩٩٥

تقف في مواجهة المرآة . تتأمل صورتها التي خمدت فيها النضارة . ووجهها الذي كان كغصن ربيع تغضن وبدا كالرغيف البائت . انكمش اتساع عينيها بفعل انتفاخ الخدين . انفلش الأنف واتسعت فتحتاه . خفت غزارة الشعر ، شابت المنابت وانزاح أكثر إلى الوراء . فتسطّحت مساحة الجبين المغضّن . تراكمت الشحوم على الجسد بغير انتظام . برزت حدبة بعرض الكتفين . تضخّم الصدر مندفعاً إلى الأمام مترهلاً نحو الخصر الذي اتّحد بانتفاخ البطن .

استدارت أكثر من مرة ، تهمز على وركيها ومؤخرتها النافرة . جلست . سحبت علبة الماكياج . بدأت تنثر الألوان لتبعث لمسة جمال وبريق .

هو على السرير مستلقياً بكامل ملابسه ، يرقبها عاقد الحاجبين تضطرب بداخله اللوعة بالاشمئزاز :

« كانت أنثى . زهرة تقطر إغراءً وفتنة . سبحانَ مغّير الأحوال . من يصدق أنها تلك التي لوت الأعناق وأثارت دهشة العيون! أنا أيضاً تهاويت

www.mlazna.com-RAYAHEEN

أمام جمالها والآن . بعد عشرين سنة وقد نفذ كل الرجال بجلودهم ولم أنفذ أنا ، أتحمّل مغبة التسرع والطيش . وألازم هذا البؤس البشع » .

نفخ بضيق . التفتت إليه . شعرها الذي نزعت من خصلاته « الرولو » كان منفوشاً . بدت كساحرة فازعة من نومها . اقتربت . جلست على حافة السرير ، ابتَعدَ موسّعاً لها أو هارباً . حدّقت إلى وجهه . نظراتها شرسة ، اصطنعت نعومة لصوتها :

ـ أنت « صرت ما تحبني » .

زفر الكلمة بلا تردد :

ـ ولا أشتهيك .

استعاد صوتها حدّته :

ـ ها!! تتجرأ تقولها وأنا الـ...

قاطعها منتفضاً من السرير... مهرولاً باتجاه باب الغرفة :

ـ أنت اللي . أنت اللي... ما الذي بقي منك غير تسطّح فكرك . وطول لسانك ؟

قبل أن تنبس كان يصفق الباب .

مُهانةً ارتمت على السرير . تعرف أنها اليوم نجمة تالفة ؛ قمر شاخ ولم تعد تحتمله أي سماء . تدرك الآن أن ليس الزمن وحده يحفظ في سجلاته القصص القديمة . هو أيضاً يحفظ تاريخ منبتها وسير حياتها القديمة .

* * *

صفقت الطفلة الجميلة الباب في وجه الولد . ركضت محتقنة بالدموع حيث أمها في المطبخ :

ـ يُمّه . ـ سليمانو ـ قرصني .

أشارت لزندها الأبيض ممهوراً ببقعة حمراء .

أمها المشغولة بضرب العجين . ألقت نظرة سريعة على الزند . بعجالةٍ حاولت استرضاء خاطرها :

ـ « ملعون الوالدين » باكر آأدبه .

تشجعت الطفلة :

ـ قبل يومين عضّني ـ فهيدان ـ و ـ حمّود ـ دائماً يحاول يبوسني . و« صويلح » صادني في دهليزهم ورفع فستاني . « كل البنات والأولاد ما يحبّوني . ولا يلاعبوني معاهم . وكل ما شافوني يطفروني وينادوني يا الزرنيخة » .

ببراءة سنواتها العشر نثرت الطفلة أخبار الاعتداءات المتكررة عليها . وكأنها اطمأنت إلى أن أمها التي ستؤدب « سليمانو » ، ستحميها من كل يَد ولسان .

تباردت كفّا الأم عن العجن . تأمّلت الطفلة ، تجولت عيناها تستكشفها ، الوجه ، الصدر ، الساقين ، الشعر ، غير مصدقة أن الطفلة قد فارت بالجمال قبل الأوان .

وسوست الأفكار بعقلها . في سرّها اشتعلت الرغبات . « البنت حلوة ومزيونة . من يعاف هذا البياض الأعجميّ ؟ ؟ » .

في الليل . تلاطفت مع الطفلة . فركت وجنتيها ببعض العطر . مسحت

على رأسها بحنان ، قصت عليها حكاية البنت الفقيرة الجميلة التي كرهتها كل البنات غيرةً من جمالها .

فعشقها ابن الأمير الجميل . تزوجها وانتقل بها وأهلها إلى قصره المليء بالرياش والخدم ، الملابس الفاخرة والمجوهرات .

تشهّت الطفلة لو تكون تلك الفتاة . سألت أمها :

ـ هل كانت تلك البنت أجمل مني ؟ ؟

كانت فرصة الأم التي عزفت أول خيوطها حول الذهن الصغير الذي توقّد بالأحلام :

ـ أنت أجمل منها . أجمل من كل البنات .

ليلتها . حاكت الأم المؤامرة .

لم يكن الدرس صعباً . كل جميل له ثمن . القرصة بربع دينار ، العضّة بنصف . القبلة بدينار . وإذا ما ارتفع طرف الفستان رغبة فيما هو أشهى فالثمن عشرة دنانير .

* * *

فاجأتها برودة أرعشتها . ما زالت فوق السرير مطروحة بالخذلان . دموعها بلّلت اللحاف ولوّثته بآثار «الماسكرا» الرديئة . رائحة كلماته التي قذفها تتضاعف مسنونة في تعرّجات عقلها . تشرخها الإهانة . تشعر بحقد على العالم كله وعليه . هو أيضاً يتفلها . لقد مضت السنوات الطويلة . لكن الماضي ما زال يترك آثامه فوق جلدها .

«ألقمتني أمي أحشاء العالم الأسود . أباحت طفولتي وشبابي منذ أن تكوّر جسدي وهتفت ـ سبحان من خلق ـ بدأت تحلم أن أكون زوجة لأمير

أو ابن أمير . اهتمت أن أبدو أكثر جمالاً وإغراءً . اختارت لي الفساتين الزاهية المكشوفة ليبرز صدري الناهد الذي تشوع فيه الإصبع . وتلك القصيرة التي يتلألأ عنها ساقاي البضتان . جلبت لي ألوان الروج اللامعة . علمتني كيف أخط حاجبيّ وأوسع فتحتيّ العين بالكحل وأقلب رموشهما . أهدلت جدائلي لينساب شعري البني حتى خصري الرفيع . علمتني أغمز بعيني ، أتلاعب بشفتيّ . أتدلّع بصوتي ، وكيف أصير أنثى يدير جمالها أعناق الرجال .

جذب جمالي أول ما جذب أصدقاء أخي الذين أشاعوا بعد ذلك أسرار الجمال . ذاع صيتي . هرول إلى بيتنا أعتى الرجال . أغناهم . أكثرهم وسامة . وأمي تواصل تعليمي كل فنون الإثارة التي تطير معها عروق عيون الرجال ، ومنابت عقولهم . يدوخون ، يتلذّذون . وحين أفتح نوافذ الحدائق يرشون زهورها بالأنواط الخضراء » .

* * *

من الصالة التي تطل نافذتها على الساحة أخذ يراقب الصبيان الذين نصبوا مرمى لكرتهم . يتبارون . تتلاحق أصواتهم بحماستها . آخرون يصفقّون ، يصفرون . كلٌ يشجع فريقه . ظل يتابعهم يعصره الحنين لمرحلة الشباب التي لم يعشها بمثل انطلاقهم وحيويتهم . تعامل أهله معه وكأنه رجل مسؤول . حمّلوه أعباء المشاوير إلى السوق وغيرها من المهمات اليوميّة . ومن ثم زوّجوه باكراً . كثرة الأطفال التهمت السنوات ، عصفت بعشرات الأحلام . لا مكان للحب ، ولا مجال لمعانقة أفراح الحياة . حتى زلت به النفس باتجاه الزواج الثاني .

«لا أدري حتى اللحظة إن كنتُ أحببتها أم أنها بمكرها الشديد

استطاعت أن توقعني في شباكها الملوثة . قصدتها كما يفعل غيري ، قلت أتسلى وأتذوق الثمر المباح . شيئاً فشيئاً وجدتني أسقط في شبكة العنكبوت . وحين فكرت بالخلاص فاجأتني ذات يوم بأنها حامل!!

ـ منّي ؟ ؟

صرخت في وجهها وقد أيقنت أن البلاء حلّ عليَّ . انفجرت باكية . قبلّت أقدامي ، حلفت أنها منذ عرفتني لم ينحرف قلبها لغيري ، وأنها لم تفتح باباً ، ولم تمنح جنةً لسواي . توسلت إليَّ :

ـ هل ترمي بلحمك إلى الشارع ؟ ؟

هو لحمي إذن! هي تؤكد . ولا أدري إن كانت مارست ذات اللعبة مع غيري وفشلت . لكنني بغباء شديد صدقتها . أو ربما أخذتني شيمة الرجال . فقررت أن أتزوجها .

قامت الدنيا ولم تقعد . ثارت عائلتي عريقة الأصول . غضبت زوجتي . هدّدت . فلم أتردد . طلقتها . رميت بها وبأولادي إلى بيت أهلها . أصدقائي المحبون استشاطوا غضباً . لم يتحرج بعضهم أن يذكرني :

«منذ كانت طفلة . كنا نهارش جسدها في الدهليز وبيوت الخلاء» .

وقال آخر وهو محزون يكاد يدمع :

«في صباها لم تفلت من أحد . أمها تصحبها إلى المزارع والشقق المقفلة» .

أما تلك الزميلة التي وددتها وطلبت قربها فرفضت ، فقد صارحتني وفي عينيها لمعة الأسف :

ـ تعرف أنها ذات ماضٍ ملوّث!

صفعتني أنها تعرف الحقيقة . أمامها شعرتُ بضعفي وسقوطي . كان لا بدّ أن أثور لكرامتي ولو ظاهرياً . أعلنت في وجهها :

ـ أعرف . ولا يهمني ماضيها .

ـ ستتعبك .

قلت مستنجداً ببعض الثقة :

ـ ستتوب . معي ستنسى كل الرجال .

لم تتوقف ، أصرّت تضع المنشار في حلقي :

ـ مثلك لا شك يعرف . حين تعتاد المرأة سريان الدود في جسدها . فلن تكفيها يد واحدة لتحكّ .

رغم أنني أفهم نيّتها السليمة . وأقدر محبتها وخوفها عليّ . إلا أنني حقدت عليها وقطعت صلتي بها وكم عذّبني هذا . كذلك صممتُ أذنيّ عن كل نصائح الأصدقاء . كان إغراؤها الشيطاني أكبر من حبهم .

تزوجتها .

اكتشفت بالطبع أنها لم تكن حاملاً . وحين واجهتها تمسكت وكذبت :

ـ هل تتصور ثورة الناس علينا لم تؤثر ؟ لقد أجهضت .

ولكي تعوّضني ـ وما كنت أرغب ـ كرّت مسبحة رحمها وملأت البيت .

* * *

«أمي حاكت مؤامرتها . لم تعد بحاجة لتعلمني أي شيء . حفظت الدروس كلها وتفوقت عليها . كان المال حلمها وحلمي . اكتفت هي وأخي

www.mlazna.com-RAYAHEEN

به . ولم أكتفِ . صارت لأحلامي أقدام خيول جامحة . هناك مصادر أخرى للبريق . وقد صرخت في وجه أمي ذات يوم :

ـ الم تجدي لي اسماً أجمل من هذا ؟ ؟

أمي صعقت . خبطت على صدرها ولا أنسى أبداً كيف ارتجّ نهداها بوحشية :

ـ وهل أجمل من اسم بارونة ؟ ؟

لم تفلح أمي في إغرائي بمعنى الاسم . بعناد أصررت على أن أغيّره . للأسماء والألقاب رنينها الذهبي . لم يكن الأمر صعباً . ألف عاشق تبرّع . طوّح باسمي ولقبي . زخرفني بما يوحي أنني أنتسب لعائلة مرموقة . فجمحت أحلامي أكثر . صعب عليّ أن أشد لجامها وأنا المدفوعة برغبتي الشرسة كي أحقق كل شيء يرفعني أمام العيون التي كشفت ستري وستائري .

بحثت عن مزيد من الشهرة . وكم كان الطريق سهلاً . الجمال له سطوة . والرجال وإن كانوا خفافيش يمتصون الدماء وذئاباً يتلذّذون بالتهام اللحم . فهم أيضاً مجرد جرذان يتقزّمون . وتتبلل سراويلهم حين يُواجَهون بما يذعرهم .

تولدت بداخلي نار الانتقام منهم «أولاد الكلب»! يأخذون ما يشتهون . وحين أعرج على ذكر الزواج ، يتسرّبون من الجحر كما الأفاعي . فإن لم أحقق الشهرة من خلال الزواج بأحدهم ، فلا بأس من استلابهم بالتهديد وإفشاء الأسرار .

كانوا يرضخون ليدرؤوا خطري عن بيوتهم ، ومناصبهم . التمعت

صورتي وأنا أجالسهم بالحفلات العامة ـ كنت أتقصّد أن ألتصق بأحدهم ـ وبأقلام بعضهم شاركت أصحاب القلم ، انتشر اسمي . حصدت شهرة ـ حتى وإن كانت كاذبة ـ لكنها ملأتني بالسعادة والغرور .

تصورت أنني حققت كل ما اشتهيت . لكن الحقيقة المرة ظلت تلاحقني . فلا المال المسلوب عن طريق الجسد غسلني . ولا اللقب الجديد محا اسمي القديم من ذاكرة الذين تنهّدوه وعلكوه في ليالي الجمر والخمر . ولا بريق الشهرة بدّد الهالة السوداء المستحكمة حولي . الناس لا ينسون . ولا يغفرون . ظللت بنظرهم تلك الأعجمية ـ الزرنيخة ـ التي مهما اغتسلت تفوح رائحتها المزكمة!

عذّبتني نظرات الناس الفاتحة بالاحتقار وهي تخترق أدق عظامي . كانت عورات أحلامي وأيامي تطاردني . كنت أقضي الليالي باكية مهانتي . حاقدة على كل من حولي .

كان لا بد أن أبحث عن وسائل أدافع بها عن نفسي وقد طفت كل الشرور بداخلي . تعنجهتُ . تسلطتُ . أشعلتُ فتائل لساني لتقذف التُهمَ وتلفّق الأكاذيب . صرت أشوَه كل العارفين بتشوّهي . خاصة النساء مَمن حظين بأزواج يفاخرون بهن أمام الناس . خضعت لفحيح الحقد وسموم الانتقام . سقطت في عالم مهووس . كان شرهي حاداً أن أثبت للنساء أنني لست أقل منهن قدرة وشأناً .

لن ينقذني سوى البحث عن زوج ينتشلني من إناء الماضي الملوث . رجل أرمّم به نفسي . أطهّر اسمي . يحصّنني من نظرات الازدراء . يرفعني لصف النساء المحترمات . ولم أتنازل عن قراري الذي اتخذته . يجب أن يكون ابن عائلة كبيرة ، وغنيّة . لا يهم ماذا يكون! جميلاً ، بشعاً ، غبياً ،

بليداً ، وهكذا سعيت بكل الطرق حتى وجدته . لم يقاوم طويلاً . وقع في شباك أنوثتي » .

* * *

أنوثتها طاغية . يبدو أن المرأة الساقطة لا تتجوهر وتتفتح إلاّ بالسقيا المستمرة .

الأرض لا تجف . والأغصان دوماً تتلاعب مع الريح . فتحرك أبرد العواطف . في عالمها انتعشت جذوع الرغبة التي ماتت باتجاه زوجتي . تفتحت الحقول أمامي . اندفعت ، أسكرتني بخمر جنتها وبالثمار . عشت علاقتي بها محلقاً في سماوات النشوة ، تائهاً في الأدغال ، غارقاً في البحار الملتهبة . آهٍ من المرأة الخبيرة بأصناف الرجال ، لقد رأيت العجب من فنون الإغراء والعشق . تصورت هذا الهيام يبقى ، والرغبة تدوم .

ولكن! يا سبحان اللّه! كيف ألغت ورقة المأذون في لحظة متعة الشهور الطويلة . لقد خمد كل شيء . كانت التجربة مريرة منذ الليلة الأولى :

حين قربت ثغرها من شفتيّ . شعرت وكأن عقرباً ستلدغني . تأملت جسدها المفروش أمامي . فركت عينيَّ غير مصدق ، كان الجسد كله مرشقاً بالأفواه التي أعرف أشكالها ، وروائحها . هذا فم أحمد . هذا خالد ، هذا مهند ، جعفر ، سلمان ، منصور ، إبراهيم ، صادق ، عبد العزيز ، ياسين ، يعقوب ، و... عشرات الأفواه المتراصة تسخر مني . تمد ألسنتها الملوثة بألوان « روجها » وتتفل في وجهي . أصابتني لوثة . أردت أبعدها . أخذت أضرب كل مناطق جسدها . فتطير الأفواه . تنبت لها أجنحة بق ، جراد ، ذباب ، تلوثت الغرفة بالحشرات . تورّم جسدها . وما يزال يتحداني ، يفرغ المزيد من الأفواه . هويت عليها . صرت أعضها ، وشعرت وكأنني أقضم

بيوض صراصير . تلوّعت . امتلأت بالسيول وما تزال الأفواه راسخة . أخذت تصرخ بصوت لا أثر للغنج الجميل فيه . صوت حاد يزفر اسمي لا كما كان يترنم به قبل الليلة .

ـ فالح . يا حبيبي . ماذا أصابك ؟

تطيح بي فوق جسدها ، فأحسه كتلة من الصلصال . تدفق من ثغرها رائحة زرنيخ :

ـ إنها ليلتنا الأولى .

تذكرت! عليَّ واجب القيام بالمهمة كزوج عاشق . أطلقت صوتي :

ـ سأطفىء النور

غابت في الظلمة كل الأفواه . حمدت اللّه . قاربتها . التصقت بي . ضمتني . تأوهت ، فاحت من فمها رائحة كريهة... من كل جسدها شممتُ خليطاً من روائح أجساد متعرقة ، فوح طين مجبول ببول صبيان وقحين . رائحة قطن متعفّن في وسائد الصيف فوق الأسطح . أين شممتُ مثل تلك الرائحة ؟ ؟

قفزت صورة ذلك الحوش الذي عرج عليه أخي الكبير عائداً بي من المدرسة . أجلسني عند كومات ـ الجولان ـ والتبن ، « ومداور » الجت . أمرني أنتظر . دخل إحدى الحجرات ، جذبتني مأمأة « الصخول » وثغاء الخرفان ، قادمة من الحجرة التي دخلها . لم ألتزم بالأمر . تسللتُ... تلصصتُ من فتحة الدريشة . رأيت أخي والمرأة يتعرى نصفهما الأسفل . يتحاككان . يصدران أصواتاً غريبة ، يتلفظان بكلماتِ العيب التي ينهانا عنها الكبار . هربت حيث كنتُ . وحين أقبل عليَّ كانت تفوح منه رائحة الدمن* .

* الدمن : فضلات الماعز

www.mlazna.com-RAYAHEEN

هي نفسها تعوم الآن في الأجواء صادرة من جسدها ، عنيفة مقزّزة .

فتحت النور . عرقي يتصبب . جسدي خائر واهن . شعرت بغثيان . هرعت إلى الحمام . تقيّأت لوناً أخضر .

عدت إلى الفراش . نظراتها غاضبة . وكذلك صوتها :

ـ ماذا دهاك هل أصابك العجز ؟ ؟

اقتربتْ . تدلّلت . تندى لسانها بالكلمات المثيرة . من أي قاموس جاءت بها ؟ تشبّثت . هممت أمتص عنقها . وثب أمامي ثعبان ، هربت إلى الصدر . كان بانتظاري ثعبانان آخران . لم تخمد رغبتي . كان الشبق المنفلت من لسانها يصب في أذني يثيرني ، يحفزني . اندفعت إلى البوابة المفتوحة . شعرتني أغوص في وحل . اهتاج من داخلها فيضان بواليع قذفني بعيداً عنها ورائحة الدمن تنتشر وتحاصرني .

عشرون سنة . ألعن فيها ورقة المأذون التي مسخت شخصيتي . قنّعتني بألف قناع أتستر به من النظرات . توحّلتُ . أدمنت المسكرات والمخدرات لأنسى . فصرت بضعفي عبداً لأهوائها ، فأراً لا يغادر الجحر إلاّ بأمرها ؛ ثعباناً مسيّراً لأحقادها . أنفث السم لكل من تريد الانتقام منه . تشبّعت رائحتها الدمنية . خسرتُ الأصدقاء . فقدت حبيبات كن أقل منها جمالاً . لكّنهن حتى اليوم جميلات رشيقات . بينما هي «تدقفست» وخشن جسدها وكأنه مزروع بالشوك .

أحلم بالخلاص . أشتهي أواجه النهار بوجهي أنا بلا أقنعة ؛ بروحي أنا بلا أحقاد . كان حلمي أن أرفعها وأرتقي بها . لكنها انتصرت وشدتني إلى عالمها . اصبحت لا أطيقها . أكره سلاطة لسانها الذي صار كلسان الدلاّلات لا يكف عن الهذر والصراخ .

تشعر بكل هذا . والخوف يحاصرها . سألتني ذات مرة :

ـ هل تنوي أن تطلقني ؟ ؟

طمأنتها :

ـ لا

لم تكد السعادة تروي حشافة وجهها . كنتُ أسارع أفقأها :

ـ لسبب واحد . خوفي من شماتة الناس .

وما زلت... أغرق .

١٩٩٧

موت اللبلابة

هذيان المطر يتواصل ، الغيوم عباءات يشق سوادها التماع البرق . والريح مهتاجة تجتث مناجلها رؤوس الأعشاب ، وتُطايِرُ ريش العصافير اللابدة تحت مظلات النوافذ .

هي خلف الزجاج المزخرف بخرائط القطرات ، تلصق وجهها على سطحه البارد ، عيناها مركزتان على ـ اللبلابة ـ الناتئة من قلب الأرض . متسلقة خيطها إلى حافة السطح ، تأملتها ، تفرّست بأوراقها الخضراء النامية ، وتلك الصغيرة المندسة بين الفروع كأطفال يندسون في حضن الأم ، يحتمون من البرد ومن أحلامهم المرعبة ، الريح تحاصرها ، تنتفض كأنثى يطاردها مزاج رجل مجنون ، تحاذي الزجاج تصفقه ، كمن تود اقتحام الغرفة بحثاً عن الدفء والأمان . أثارت اللبلابة المتأرجحة شفقتها ، همست بسرها : «لا حماية لك داخل غرفتي . لو كنت مكاني لعرفت كيف يكون للغرف المغلقة صقيعها الحارق» .

تذكّرتْهُ ، نغل الحنين باعماقها ، تمنتهُ يخترق عويل الريح . ينتصب أمامها ، يثير بإعصاره شوقها القديم للركض تحت جنون المطر ، تتدثر

www.mlazna.com-RAYAHEEN

بذراعيه الدافئتين ويتسربان إلى ذلك المقهى . يتحد بخار قهوتها بوشوشة الشوق المنسكبة في الفناجين وصوت فيروز يحتفل «برجوع الشتوية» .

هذا نهار لا يصلح إلا للحب ، لكن واقعها المر يصفعها ، يبعثر أحلامها شظايا حادة ، شعرت وكأن روحها تذوب كنجمة .

تحسّست جسدها المتعب ، عانقت صدرها بذراعين مرتجفتين ، خصرها ، أردافها ، ودت لو تسلخ جلدها الميت ، تغتال وجعها وتنفلت عارية تحت سماء تنذر بالوعود ، تأوهت ، تعرف أنها لن تخرج لتقطف وعداً واحداً ، بل ستواجه غضب الطبيعة مرغمة . تلقم أمنياتها لشوارع مكتظة بجنون السيارات وأنياب الموت .

أسدلت الستارة بوجه اللبلابة . تأهبت للخروج .

دسّت كفيها داخل القفازين ، تدثرت بمعطف المطر ، اندفعت إلى السيارة ، أدارت المحرك . كادت تنفلت بها . دغدغها صوته :

ـ السيارة كالمرأة ، لا تطاوع قبل أن تمتلىء بالدفء والحنان .

انتظرت ، عناقيد المطر تتساقط وتنفلش على الزجاج الذي استراحت عليه أوراق الشجر الصغيرة . حركت ماسحتي الزجاج الأمامي فانزلقت الأوراق وكأنها بعض أمانيها المبللة باليأس .

زمجر الغضب بداخلها ، تسرب حتى قدمها ، داست بعنف فانطلقت السيارة إلى شوارع تنفرج وتضيق بفعل قناصة الحفر وآلياتهم . توقفت عند مكتب البريد . زجت الرسائل في فم الصندوق الأصفر ، سمعت خشخشة ارتطامها بالرسائل الأخرى ، دخلت المبنى ، اتجهت لصندوقها الخاص ، هطلت الرسائل منه والطرود . خفق قلبها ، حضنتها ، دثرتها تحت البالطو

وهي تقطع المسافة إلى سيارتها . حين استقرت خلف المقود فردت الرسائل ، قرأت الأسماء ، بحثت عن رسالته ، شهقت بفرح ، همّت تعود إلى البيت تستدفىء بحروفه ، لكن صوت أنبوبة الغاز الفارغة التي تتدحرج في الصندوق قتلت فرحتها .

وقفت أمام طوابير الأنابيب المصفوفة مثل عساكر ، داهمها خاطر مريع ماذا لو سقطت شظية الآن وفجرتها ؟ استعجلت العامل ابتسم وهو يجعر بصوته :

ـ أنبوبة نظيفة كطلبك دائماً .

فرّت من ابتسامته ، انتشرت غيمة سوداء ، توقفت عند محل الكهرباء ، سلّمته خلاّط العصير المعطل واستلمت منه المكواة التي أصلحها . اشترت دزينات من اللمبات ذات المائة شمعة والستين شمعة .

واصلت من «الدعية» إلى شارع القاهرة ثم اتخذت يمينها إلى شارع بيروت . دوّى الرعد بوحشية ، تقاذفتها صور الحرب البشعة ، ضاعفت سرعتها ، ألجمت السيارة عند باب المطحنة ، أطلقت بوق السيارة ، أقبل العامل ، فتح الباب الخلفي ، وضع الكيس :

ـ كما تحبين نصف أشقر ، نصف محروق ، هيل كثير .

انتشر عطر البن ، تمادى يوقظ حنينها لدرجة الغليان ، تذكرته ذلك النهار وهي تحدق إلى فنجانه تداعبه بقراءة حظه ، استحثها :

ـ ماذا ترين ؟

ـ آدم يغص بتفاحة الجنة وينحدر مهزوماً إلى الأرض .

تتذكر كيف تحداها :

ـ لماذا لا يكون منتصراً رغم الغصة وتكون الأرض جنته ؟

تاقت لجنائن صدره . بعثر المطر نشيده فوق سقف السيارات . ستعود إلى البيت ، تفتح رسالته ، تتذوق طعم شوقه ، تستحلب نشوة افتقدتها منذ غادرها آخر مرة . التفتت تطمئن على الرسالة . صفعتها ورقة الطلبات التي لم تنته بعد . بقي الكثير .

اتجهت إلى الجمعية التعاونية ، تجولت بين الرفوف المزدحمة ، قابلت وجوهاً ، تعثرت بصناديق كرتونية مفرغة من البضائع للتو ، ازدحمت العربة بالأغراض ، في طريقها إلى الكاشير وقعت عيناها على فترينة الألعاب ، خفق قلبها لمنظر الدمية ذات القبعة الحمراء ، تأملتها ، تحسرت ، يوم كانت طفلة حلمت بدمية كهذه لكن الحلم لم يتحقق .

اشترت الدمية ، دفعت الحساب ، اتجهت إلى باب الخروج ، فوجئت بالسماء تسكب دلاءها بعصبية . الريح قاسية ، رصيف الجمعية مخنوق بالأجساد التي تتقي السيل . الوقت ضيق ، لديها الكثير ، استعر الحقد فضفاضاً بداخلها . هذا يوم لا يصلح إلا للحب .

فضت زحام الناس ، هرولت تحت المطر والعامل يتبعها . رص الحاجيات ، انتظر بوقاحة ، نقدته البقشيش ، دلفت إلى السيارة وقد تبلل شعرها وتناثرت القطرات فوق وجهها كالدموع . ألقت نظرة على الرسائل ، عانقت خط يده . انفجرت بالبكاء .

واصلت السير إلى «مجمّع النقرة الشمالي» ، إلحاح ابنتها يزقزق حزيناً داخل أذنها :

ـ بعد غد حصّة الألعاب... أريد...

تجولت ، اختارت حذاء الرياضة ، فانيلا بيضاء ، شورت أخضر ، شريطة صفراء ، إشارات مخملية ، مضارب تنس . ثقلت الأكياس ، مرت تصافح الواجهات بسرعة ، توقفت أمام قميص النوم البنفسجي ، ارتعشت ، تذكرت :

ـ هذا اللون يليق بك . ستبدين به كزهرة البنفسج .

يومها تدللت عليه :

ـ وأضع روجاً بنفسجياً وأشكل بشعري وردة بنفسجية فتكتب لي قصيدة! صوته يلح : اشتري القميص .

طوته البائعة ، حضنته إلى صدرها ، خرجت تحلم به يأتي في يوم ماطر ويتمرّغ فوق البنفسج . هتفت باسمه عشرات المرات وهي تقطع المسافة إلى سيارتها وتسكب جسدها غيمة باردة على المقعد . تلمست رسالته ، هاجمها الغضب ، ودت لو تنسف حياتها ، تبصق كل ظروفها ، تختار قلبها فقط تعيش به حرة ، تسافر ديار الحب مثل فراشة .

حطت عند مخبز «التنور» . شقت الرائحة عباب صدرها . كانت السماء قد فرغت إلا من رذاذ حنون يتساقط . تسلمت الأقراص ساخنة مصحوبة بابتسامة الخباز ولهجته المتعثرة :

ـ «محمّش زين» سمسم وايد» .

عرجت إلى المكتبة . اختارت مجلاتها المفضلة ، اشترت كشاكيل مدرسية لابنتها ، أقلام رصاص ، ألوان شينية ودفتر رسائل ملوناً!

كان بخار الخبز الساخن قد شكل غلالات ضبابية فوق الزجاج ، عبقت السيارة برائحته الشهية . ذات مرة قالت له : رائحة جسدك تشبه رائحة الخبز . ضحك بأعلى صوته وقال : أخاف أن تأكليني .

لو جاء الآن لن تتوانى «تقرمشه» انتقاماً من غيابه . اهتاج شوقها ، لم تعد تواصل إكمال المهمات . بقي اللحم ، الخضار ، ومصبغة الثياب .

اندفعت إلى البيت ، أفرغت الأغراض ، ركضت إلى غرفتها تعانق رسالته ، فضت قماش الستارة ، فتحت النافذة ، هرولت الريح إليها تطاير أوراقها ومفارش الطاولات الرقيقة . بحثت عن اللبلابة ، دفعت نظرتها إلى الأسفل ، رأتها متكومة كجثة . أحست الريح تفتح ثقوباً بكل عظامها فتتكسر بداخلها الأغصان . انتفضت ، تهاوت إلى الأرض وأجهشت .

١٩٩٥

www.mlazna.com-RAYAHEEN

حين أضمه إلى صدري ، أشعر وكأنه ولدٌ لي ، تاه من زمن بين القارات والمدن ، عطش ، جاع ، بكى وحيداً ، لفحته الريح وغيرت ألوانه ، تساقط شعره ونما ألف مرة قبل أن أعثر عليه . أضمه بشوق ، أتركه يهذي بأحزانه فوق صدري ويبذر أحلامه القادمة في جوفي .

لم يكن تجاوز السابعة عشرة يوم التقيته أول مرة . أذكر كيف تسمّرت نظرتانا ونحن نمد كفينا نلتقط الكتاب المدرسي نفسه من رف المكتبة العامة . وجدتني بلا تردد أؤثره على ابنتي وأترك له الكتاب . لم ينطق . مذهولاً كان يتأملني ومثله كنت . كأننا نستعيد لقاء قديماً في زمن ما . أحسست وجهه يركض نحوي لاهثاً يقفز حواجز كثيرة ويستقر بعد التعب في قفص صدري .

منذ ذلك اليوم التصقنا ، صار وكأنه بعض نبضي ، أشياء كثيرة فيه تشبهني ، حالات تناقضاته حين يتألق كالبرق ، أو يهادن الحزن ، حين يحتدم به الغضب أو تتزاحم في روحه ضربات الفرح . أتأمله وكأنه نفسي تشرع أبوابها ، تزفر النار تارة وأخرى تهدي المطر . صار جزءاً من حياتي ،

واعتاد الناس أن يروه يرافقني ، يحيطني بحنان لا يضاهيه إلا حناني عليه . قالوا أكثر من مرة : «لكَمْ تحبه ، كأنه خرج من بطنها وشرب من حليبها» .

استغرابهم يفجر بداخلي أسئلة غريبة : أتراه حقاً ولدي ؟ لماذا إذن يسكنني ؟ لماذا حين يغيب أهجسه وكأنه النجمة الفريدة بين ملايين النجوم! حين يمرض أتوجع ، أحس حرارته تتسرب إلى كل ضلوعي ، حين يحزن تصمت أفراح قلبي ، وحين أراه سعيداً تشرق في وجهي بوابات الجنة .

يحدث أن ينشغل عني ، يقاطعني لأيام ، يفرك القلق أعصابي ، لا أنتظره يتذكرني ، أسعى إليه أتلمس إجابة عطوفاً من عينيه أسأله بضعف الأم :

ـ هل أنت غاضب عليَّ ؟

يحتوي ضعفي ، يضحك كطفل تؤرجحه ذراعا أمه ، يشدني لركن الغرفة الصغيرة ، يختار مكان جلوسي ، يهدىء عواصف قلبي الضاربة . يبدأ يغني طروباً أغنيات مفرحة يعرفني أحبها ، ثم تنحدر رنة الفرح ، تتحول حزناً شفيفاً ، يتغير مذاق الكلام ، المعنى ، الصوت ، اللحن ، ينشج صوته . يستعيد ماضياً قديماً ، أتوسله :

ـ لا تغني للأم . ينفطر قلبي .

يزفر آهة . يبدأ يتذكرها وحزنه ينخر في عظم روحي .

«مسكينة أمي . كم بذلت من جهد لأكون أمام ناظريها أجمل الأطفال ، أكثرهم تهذيباً ، أشطرهم . كانت تقضي النهارات متنقلة بين البيوت . تخبز ، تغسل الملابس ، تطعم الدجاجات وتحلب البقر . وفي القيلولات تجلس لساعات تفرك رؤوس الأطفال ، تفليهم ، تقصع قملهم

وصئبانهم . وباليد الحنون ذاتها تمسح شرفات عيني إن تبللت بالدموع . لا تأكل لقمة في البيوت التي تبتلع عرقها ، تحفظها لي . تضعها أمامي ، تنزع اللحم عن العظم ، تحشي كي آكل لأسمن ويشتد عودي . تراقبني وفي صفاء وجهها تتماوج ألوان البحر والرمل . ألتهم كل شيء . غير مكترث أن التي تجالسني مفعمة بالسعادة هي أمي التي جف ريقها ظمأ . جاعت ولم تشبع إلا تعباً . نفرت أوجاعها عروقاً في كفيها وساقيها . لا يلح عليَّ أدنى إحساس أن أؤثرها على نفسي . أشعرها سعيدة وراضية . تغفر غفلتي وأخطائي بكونها الأم ، دون أن أعمق إحساسي بتلك الأمومة .

كثيراً ما كنت أجلس وحيداً ، أستعيد الأيام التي تبعثرت فيها شكواها من الدنيا أمامي ، فلا أشاركها وكأن أحزانها لا تخصني . مضت السنوات ، غيبت أمي وظل سؤال حائر يؤرقني : «هل تراني لست ابن بطنها ؟» .

سؤاله النائح... محبته السابحة في دمي... حنانه الكبير عليَّ... دهشة الناس التي تلاحقني... كل شيء يوقظ السؤال النائم بداخلي . يكبر كلما كبر وتفرعت دروب حياته لتربطني به أكثر .

يوم تخرجه انتفض قلبي ، قفز حتى كاد يلامس الشهب . تباهيت بنجاحه وكأنني كنت بسهري وتشجيعي وراء هذا النجاح . جلست في الصف الأمامي لأكون قريبة منه ، أكحل عيني بمرآه . زغردت حين صاحوا باسمه ، أشعلت بخوراً خوفاً عليه من العيون . يومها انفرشت كل أسنانه أمامي وهو يبتسم باتساع فمه :

ـ لو كانت أمي التي فعلت هذا ، لما فرحت هكذا .

كان فرحي به يكبر ، شعوري الجميل نحوه يتأكد ، ومشاعره الزاخرة نحوي تؤكدها مبادراته العذبة .

www.mlazna.com-RAYAHEEN

عندما تسلم أول رواتبه ، دخل حاملاً هدية وباقة ورد بيضاء كالفجر ، قَبّلَ رأسي ، همس :

ـ أول راتب . هدية لكِ .

عادة يفرح الشباب بثمن عرقهم الأول ، يتباهون به ، يسعون لتقديم الهدايا للصديقات والحبيبات ، لكنه خصني من دون كل الناس بالهدية ، وكأنه يرد جميلاً . عاتبته :

ـ كل الراتب لي ؟ ألا تستحق منه شيئاً ؟ قميصاً... عطراً... ساعة!

قال كمن يعد :

ـ من الراتب الثاني ، الأول كله «لأم الحنان» .

يومها احتشدت بمشاعر كثيرة ما استطعت ترتيبها بالشكل اللائق . تقاطرت دموعي ، لم يمهلها تنزلق . كانت أصابعه تقطف اللؤلؤ حاراً ، وبداخلي سرت بحور الأمان . شعرته الأرض النقية تضم سنوات عمري ، شملني اطمئنان كبير أنه لن يتخلى عني حتى لحظة حملي لمثواي الأخير .

عجزت أفسر سر العلاقة ، حتى ابنتي الوحيدة صرخت ذات مرة بعفوية :

ـ حين أراه أحس كأن بعض دمه يسري في عروقي .

مازحتها :

ـ أزوجك إياه إذن .

شهقت :

ـ مستحيل!!

صمتت برهة قبل أن تضيف :

ـ أحبه كثيراً . لكنني لا أتصوره زوجاً لي .

كلماتها لا تعبر دون أن ترسب في وجداني مزيداً من الحيرة ، أخض ذاكرتي ، أهز أشجارها علّها تساقط سراً من الأسرار ، لكني لم ألتقط ثمرة ، ولم أتصيد من بين النثار حقيقة واضحة .

قبل أيام أحسست ارتعاشه يكاد يكسره وصوت الطبيب يبلغه :

ـ هي بحاجة لعملية استئصال للرحم .

زاغت عيناه . هدأ الطبيب هلعه :

ـ بعد سن معينة كثير من النساء يحتجن هذه العملية .

في طريق العودة ظل حزيناً . ساهماً . أردت أخفف عنه :

ـ إنه مجرد رحم قديم .

واهناً خرج صوته :

ـ أحسه كان بيتي .

مازحته :

ـ هذا ـ الخراب ـ يكون بيتك ؟

قال بصوت نبع من عمقه دافئاً :

ـ مرات كثيرة أحس هذا .

شعرت برفرفة غريبة داخل رحمي ، تمنيت لو أرضيه . أترك «الخراب» مكانه . لكنني رضخت لأمر الطبيب خشية أن تتطور الحالة ، فأصير كلي خراباً ، فلا يخسر البيت وحده بل أم البيت بذاتها .

استسلمت لإبرة المخدر التي اندست في ذراعي . الأضواء الشديدة السطوع بهتت . لحظة الغياب الأول تتسربني . أحسست الزمن يرتد بي إلى غرفة الولادة القديمة وصوت الممرضة الذي اخترق سمعي :

ـ في الغرفة الجاورة امرأة تلد للمرة السابعة . دائماً يأتي المولود ميتاً .

اشتدت ضراوة الطلق . كمامة الأوكسجين على أنفي وأمر الطبيب الذي يباشرني :

ـ إزحري . أكثر... أكثر... ها... نت...

رنين صراخه أخمدَ كل الألم : واء... واء... وا... ء .

غاب مع غياب الممرضة التي تناولته . غبت في لذة النوم ، صحوت ووجه الطبيب يصافحني مرتبكاً :

ـ ولد . ولكن!!

جفلت والطبيب يضيف :

ـ مع الأسف . ولد ميتاً .

استنفرت الشهور التسعة أوجاعها ، أوحام التكوين الأول ، الرفسة الأولى ، قلق الانتظار . الصرخة التي رنت مع «الزحرة» الأخيرة :

ـ أنتم تكذبون... أريد ابني .

تاهت في عاصفة صراخي أصوات الأطباء... الممرضات... وأوأة المواليد الجدد . ضحكات فرح في الغرفة المجاورة .

دبيب أصابع حانية يمسح عرق جبهتي ، يقطع حلم الغياب قبل أن

أكون هممت بعنق الممرضة . فتحت عيني . وجه ابنتي مبلل بالدموع ، وجهه عائد من القارات والمدن . صوته يترقرق بالارتياح :

ـ سلامات «أم الحنان» انتهت العملية .

١٩٩٥

www.mlazna.com-RAYAHEEN

www.mlazna.com
^RAYAHEEN^

آهة مرشوشة بالدم

استدارت .

تكوّرتْ ورحيق همستها يعبرني حزيناً :

ـ تصبح على خير .

تأملتهاتفاحة متأهبة للقطاف . تدعوني الرغبة أحلق بها في المدى الجميل . فكرتُ أدنو . أحضن همستها ورقّتها . أُبلّل أعطافها الصابرة . ما كدتُ حتى انقضّتْ عليّ حراب ذاك النهار الفاجع . انتصبت الذكرى المرّة . وجهه الغائب في الصفرة . حروف كلماته الأخيرة . يحدث هذا كلما دعتنا الرغبة نتهادى لبوابة العشق . ندخل مُحاقها الواعد بالمسرّات . وفي اللحظة التي يهل رذاذ نشوتها الشهيّ ليغرقني . تخرج الآهة من صدري مرشوشة بالدم .

يخمد كل شيء . ينطفىء جمرنا . ألمحها وقد انثالت نجوم الحزن من حدقاتها . وانكفأ فرحها متكوّماً أسئلة مرتجفة تستغيثني أنطق . أفسرّ لها الذي يحدث .

أكثر من مرّة كادت قتامة يأسي . وخوار عزيمتي تدفعني أهب . أطعنها بالسؤال اللائب بداخلي منذ ذلك اليوم المشؤوم .

ـ ما الذي كنت تعرفين ؟ ؟

في كل مرة أتراجع . أتعوّذ بالصبر . أبتلع صرختي وسؤالي . أشفق عليها من شك مضى . ألوذ بالصمت ذاته الذي منعني أسأل أمي التي توأمت كفي بكف سلوى . وباركت عرسنا ، وحين يتنامى غضبي عليها . أعود أستغفرها دون أن تدري . لا أصدق أن قلب الأم الذي يحوك نياته الطيبة . يمكن أن يُشقي قلباً .

« تلألأ وجه أمي يوم عرسي . أعاد له الفرح كثيراً من سنوات الشباب . شممتُ طيوب صدرها التي فاحت زغاريد ، ودعوات . قبلاتها التي تَندّت بلؤلؤ عينيها وهي تبارك لي . أمي التي نسيتْ الفرح منذ فارق أبي الحياة . ازدهرت تلك الليلة . رقصت . بدت شابة تحضن وجه الدنيا وتتحول فراشة . كان وجهها قرص شمس دافىء » .

* * *

تأملتُ سلوى التي استدارت بوجهها إلى الناحية الأخرى . شعرها الغزير الحالك مبعثر فوق الوسادة يُذكّرني بشعره الجميل الذي كان يتباهى به . ويشاكسني :

ـ حين يزحف الصلع إليك قريباً . سأهديك بعضَ خصلاتي .

أمي كانت تحب شعره . أذكره كيف يرتمي كالطفل إلى حضنها فتدس أناملها التي أنحلها التعب والسهر في الخصلات السوداء الناعمة . تداعبها داعية اللّه يحرسه من العين . مددت يدي لأعابث شعر سلوى ارتعدت كفي . ارتدّت .

استكثرتُ عليها الذي صارت أمي محرومة منه . لم تعد أصابعها

المفجوعة تندس في قلب شعره . وما عادت دعواتها تجنح إلى صدر السماء .

تأملتها .

همسُ أنفاسها المنتظم . عطرها الليّلي الذي يخدّرها . زندها الذي انزاح عنه اللحاف متورّد كخد زهرة يُغريني أطبع قبلتي عليه . تهتز عروش رغبتي . أدنو منها . يزعق الهاتف .

تنتفض مذعورة وصوتها النعسان معتذراً :

ـ نسيتُ أسحب « الفيش »

انتفضتُ مبتعداً عنها ، نافراً بصوتي :

ـ ألف مرة نبهتك .

هذا الرنين اللعين أكرهه . شوّه اللحظة . شفطني لدهليز ذلك اليوم المعتم . وصوت أمي عاصفاً يهاتفني :

ـ أخوك يا خالد . أطلق الرصاص .

« قذفت نفسي داخل السيارة . لا أدري كيف وصلت البيت . واجهني شيبُ أمي أكثر بياضاً . صفرة تراب ظامىء غلّفت وجهها المفجوع . أطرافها المتنافضة وكأن ريحاً تسكنها . بكاؤها الأشبه بعويل كائنات يتخاطفها الموت . سؤالي الراعد عمّا حدث لم ينتظر ردّها الذي لحقني متقطعاً : لا... أد... ري .

اقتحمتُ الغرفة محتشداً بالرعب . لفحتني رائحة الرصاص والموت مكفنةً بسكون النوافذ وذهول الجدران . واجهني المشهد الصاعق . جسده النحيل متهدّل من الأريكة . الثقب في الصدر شلال دم » .

تناهى إلي نشيج سلوى الخافت . تشابك وخيوط عويل أمي الذي كان يدخلني كالحريق . أدركتُ أنني أغضبتها . دنوتُ إليها . غمست وجهي في غابة شعرها . تمنّعت قبل أن تستدير . لم يكن اللهاث قد هدأ بقلبي بعد .

استفسرتني بوجهها المغسول بالوجع . وصوتها المعبق بالقلق :

ـ هل أنت متعب ؟ ؟

استشاطت أنفاس ندمي . أطلقت آهات جارفة . فزعت إليّ ، ارتمت على صدري لتوقف العاصفة .

«لاهثاً ارتميت إليه . شددته إليّ . تقوّض جسده في حضني . هرسته إلى صدري الذي تلعثمت صرخاته . تهاوى رأسه رخواً فوق كتفي . أمسكت به بيديّ المنتفضة في عروقهما الدماء . عانقت وجهه الذي تقيأ دفأه وسكنته البرودة . حدّقت إلى عينيه المنطفئتين . أستنطقهما بوجعي : لماذا يا فوّاز ؟ ؟ ولا إجابة سوى الصمت المسدول من برودة الجسد ، انسربَ إليّ وأثلجني .

كانت سلوى مرتكزة عندالباب ناشجةً بالدمع ترقبني .

زحف سؤالي إليها دون معنى :

ـ كنت هنا! ؟

ركضت نحوي . انهمرت على الجسد الغائبة عنه الروح . تلوّنت مثلي بالدماء . تعرّى صوتها من نعومته المعتادة .

ـ جئت أزور خالتي .

كان فزعها المهوّم في القرار ينبعث حرائقَ من عينيها . أبعدتها بكوعي آمراً أن تتجنّبَ رهبة المشهد . تباطأت قبل أن تتوكأ شجنها المرّ وتخرج» .

خرج سؤالها ملوّعاً بالتوسل :

ـ ما الذي يحدث لك ؟ ؟

«ما الذي حدث ذلك اليوم ؟ حين خرجت سلوى كانت تتعارك بداخلي الأسئلة الحائرة بالأجوبة المفترضة . هل كان ينظف المسدس فانطلقت الرصاصة وأخطأت ؟ لم تكن الضربة عشوائية . هي هنا في القلب مباشرة . هل جُنّ فجأةً! هو الهادىء الرقيق .

ما الذي أثاره ففزعت عصافير روحه وفرّت! تشاجر مع أمي ؟ ؟ هو المدلل ربما لم يحتمل قسوة الكلمات فأراد أن يعاقبها لتندم . لا يمكن أن يحرق قلبها . هو الذي لا يحتمل رفيف حزنها ، أو دمعتها . أين كانت هي وسلوى ؟ سرقتهما أحاديث النساء المعتادة حتى أيقظهما زئير الطلقة ؟ ؟» .

* * *

أي سبب أقوله لسلوى ؟ كيف أنزع أشواكي وأغرسها في جلدها الناعم ؟ عمّ أحدثها ؟ عن سر عجزي أم وجع شكي ؟ ؟

«لم أكن قادراً أستشف سبباً لإخماد روحه بهذه الطريقة المفجعة . ظللت أشده إلى صدري لعل بعض خفقات تغادرني . تتسلّل من الثقب . تنعش خطوة القلْب المسافر فتعود تورق في عروقه النبضات . ذراعاي تخدّرتا . أرخيته على الأريكة التي تشربت بعضاً من عصير دمه . وسّدتُ رأسه على طرفها المنحني . أمسكتُ بكفّه التي تصك على المسدس بإصرار . نجحت في فك الارتباط العنيد . انتقل إلى يدي حاراً . رميته بحقد . وعيناي على الثقب النازف الذي تكتلّت حوله قطع اللحم المفرومة ملبدة بقماش جيب الدشداشة» .

* * *

مدّت كفّها مندى ببرودة اليأس . حبّتْ أصابعها من فتحة الدشداشة متجهة صوب قلبي . هوّست عليه برفق . تود لو تقبض على السر الذي يباعد بيننا . يحرمها حقّها . صوتها الرطيب يندلق في أذني مسترحماً :

ـ آه لو أعرف ما بداخلك .

«بداخل جيبه لمحت شيئاً تشفُّهُ نعومة القماش . استبحت لكفي تَسحب الورقة المعجونة بحمى الطلقة الواحدة . رهبة التوقع عصفت بي ، ماذا كتب ؟ ؟ كانت ارتجافة كفي . وبلل الحروف يتوّهان تركيزي . لكن عينيّ التهمتا المعنى . صرخة احتجاج . بوحُ لحبٍّ لم أعرف عنهُ . ويأس لم يحتمله القلب . هل غدرت به سلوى ؟ ؟

تزلزلتُ . شعرت السقف يتهاوى . يرتطم بالأرض سريعاً ويهرسني تحت حجارته الثقيلة . اشتعلت من حولي الحرائق . طفحت فيضانات . تشظّت جمرات الغضب برأسي هممت أنطلق كالسهم أخترق عويل أمي وقلب سلوى : هل كنتِ تدرين بعاطفته المتوقدة» .

تحرك ذراعي نحوها . لممتُ بردوة زندها . همست :

ـ سلوى .

بفرح تجلّى صوتها :

ـ روح سلوى .

هل تثقين أنني أحبك ؟

قطعتُ شهقتها قبل أن تلحقها بالرد :

ـ أعني . هل تفهم المرأة لغة الحب المتسللة من عين! من كفّ! أو همسة عابرة تنطقها شفة المحب ؟

حاولت ترد . لامست شفتيها بإصبعي لأكمل :

ـ هل يمكن لأمرأة تفهم هذا أن تتغابى مثلاً لإنها تحب رجلاً آخر ؟

دفعت بإصبعي الهاجمة على شفتيها . سألت كمن يجيب :

ـ ألا يحق للمرأة أن تختار الذي اختاره قلبها ؟ ؟

ـ والآخر ؟ ؟

احتجّت :

ـ أي آخر!! هل تكون المرأة مسؤولة عن حب لا يجذل له قلبها ؟

«فاتني تلك الليلة أن ألحق به . أقتحم غرفته . أستفسره سر ابتعاده عن الحفل . وحزنه .كل الموجودين عبّروا عن ابتهاجهم . أم سلوى ـ خالتي ـ رقصت طرباً إيفاء لنذر سابق . عمّاتي . أختي الكبيرة وبناتها الصبيّات حملن «المباخر والمرشات» يسكبن الشذى وماء الورد . وحده تأخر عن الحضور . وحين عانقني خرج صوته مترنحاً بالكلمة : مبروك .

لم يتوقف عند سلوى التي هيأت كفها لمصافحته . عَبَرها مسرعاً شممت فوح عتاب من عينيها لاحقه حتى أغلق باب الغرفة» .

* * *

لاحقني صوت سلوى متوسلاً :

ـ أرجوك يا خالد . لا تغلق قلبك صارحني .

لم أفعل .

سنة وأكثر . هي عاشقة وصابرة . ولا أكفّ عن المحاولات لكن الذكرى تلاحقني وتُفزعُ آهتي المرشوشة بالدم كلّما قطر عبير نشوتها ليصب إلى صدري .

١٩٩٦

www.mlazna.com-RAYAHEEN

المشنقة

غابت كل الأصوات . رقرقة العود . صقلات الطار . وشوشوات الأقدام . الضحكات . الحوارات الطارئة الصاخبة . الهمسات . تلاشى الدفء كله ، انتصبت مشنقة الليل . ران هدوء مفزع .

ارتمت على الأريكة تتأمل فوضى المكان . علب سجائر فارغة . أعقابها تملأ المنافض . بعض رمادها تبعثر فوق السجادة وترك ندوبه السوداء . صحون فارغة . أكواب الشاي وفناجين القهوة التي جفّت حشالتها راسمة خرائط لم يقرأها أحد . أوراق كلينكس مهروسة ، شرائط كاسيت ، أوراق صغيرة سجّلوا عليها أرقام هواتف متبادلة ثم نسوها .

على الأرائك خلفوا روائح عطرهم ، عرقهم ، فرحهم ، كلماتهم ذات الرنين الحاني . غزلهم الذي يقف عند حدوده الجميلة . بعض حزن في عيون لم يبخّره الفرح فاستقر كالضبابة اللحوح ، وفي المرايا خيالات الوجوه التي تفقّدها أصحابها . نساء تمسح نزق الكحل ، تمرر أصابع الروج على الشفاه الجافة . تسوي خصلات الشعر المتمردة . رجال يعدّلون وضع ـ الغترات ـ وربطات العنق ، يمسحون على ذوائبهم متحسسين بداية غيم أبيض تسلل إليها .

خرجوا . بعد أن ترطب كفّها ، وخدّها ، بقبلات امتنانهم . تأبطت الأذرع بعضها وقد دمدمت رغبات حبيسة وانتشت لتفرغ غليانها ما أن ترتمي فوق الأسِرَّةِ المنتظرة .

بقيت وحدها . تتلمظ عطر سعادتها التي تسربت مع تسربهم ، تواجهها الأبواب المغلقة تهزأ منها اللوحات المشنوقة على الجدران . تنتصب أمامها خيالات الليل نائحاتٍ معزيّات .

فرّت إلى غرفتها . تحت الدش البارد غسلت نفث عرقها . اندست في الفراش مخنوقةً بداخلها العبرات . تدلى الصمت بلحاه السوداء ، وأثدائه الباردة . فاحت سموم الوحدة ، انفلش السرير صحراء . زهور الشراشف الملونة تحوّلت بعوضات تمتص دمها . الوسائد كثبان رمل وحصى . اللحاف جلد جمل عجوز . قلبها جرس نحاسي أفلتت حبته الرنانة .

عاندها النوم . الظلام المرين ينكبّ عليها كيساً من الاسمنت . استنجدتْ بالضوء الأحمر .

انطلقت الأشعة غيمات توزع حرائقها فوق الأشياء . الخزائن توابيت تتكدس فيها الثياب أكفاناً مهترئة . التماثيل بأوضاعها المختلفة هياكل عظميّة . زجاجات العطور فوق التسريحة أفواه . جماجم تفوح من ثقوبها روائح الكافور .

الغرفة مقبرة .

الليل مشنقة .

السرير تابوت .

بحثت عن شيء يبدّد وحشتها . التفتت نحو كتبها المرصوصة .

ناشدت بطلاً من أبطالها أن يغادر فجأة . يقفز إليها . يغتصب سكونها . يحدثها . يداعبها . يصارعها . يفعل أي شيء يحطم الرتابة والضجر . خذلها كل الأبطال الذين أحبتهم . وأعجبت بشجاعتهم وقلوبهم الحارة . لم يهتم بها أحد . كلهم اختاروا أنفسهم لصق أجساد بطلاتهم العاشقات .

لا أحد يبحث عنها . يتذكرها . يتفقدها . يرشها بالندى .

هو أيضاً غائب بعيد . لا يدري كيف يقرضها الليل بأسنانه ، ويصفعها بأتربته . يولجها في العاصفة ، يحلزنها ويطرحها ممرّغة بدمها .

«لو يأتي الآن» .

تمنّته بجانبها لتنمو بين يديه أرنبة بيضاء تفر من جحرها المعتم . أو دودة ناعمة تنسل من تحت «الساس» إلى خضرة الحقول .

طفرت الأنّات من صدرها . انسابت دموعها . تناثر زجاجها الرمادي من الذي يبدّد غيوم حزنها ويفتح مظلّةً تواريه ؟ ؟

وجه أمها معتق بصفرة القبر يتماوج أمامها . رذاذ عتابها الحنون :

«كم حاولت أقنعك أن للرجل في الفراش أنساً ودفئاً» .

تمرّدت على أمها . رفضت كل مشاريعها لتزويجها وسجنها في إطار رجل يبيح عاطفتها وعمرها لانتصاراته . يقوّس أحلامها . تصدأ فيكسرها حلماً بعد الآخر .

تصدق أمها الآن وهي تتحسس الفراغ وتتمنى رجلاً يخصها . ولا أحد! حتى الذي اخترق أسوار قلبها الصلبة تنتصب بينها وبينه الأسوار تظل محاصرة بمشنقته التي يتأرجح فيها عنقها . فتتمنى في لحظات يأسها لو يشدها لتبصق روحها وترتاح . أو يوسعها ويطلق رأسها حراً .

www.mlazna.com-RAYAHEEN

لكنها أدمنت المشنقة . حبلاً ، وعقداً أهداه ذات يوم .

بسط العلبة المخملية أمامها :

ـ خَمني . ماذا بداخلها ؟ ؟

لم ينتظرها تنبس . فتح العلبة . أخرج العقد الذهبي . أصر أن بيديه يزين به عنقها . أسلمت له رقبتها كما يستسلم فرخ الحمام للسكين .

قالت : ضيق . قال : لا أحبه متدلياً ، قالت يخنقني . أكاد أموت . ضحك : أحسن . حتى لا يحبك أحد سواي .

رجته يوسع دائرته . قال : ماذا لو خنقتك الآن ؟ قالت : جميل أن أموت بين يديك .

ظل في محاولته لغلق العقد . شعرته يحز عنقها الناعم . انتظرت دقائق مرّت دهراً . انتظار الموت صعب . فرّت منه بأحلامها . سافرت بلاداً بعيدة . دخلت شوارع . سبحت في بحار . حلقت في سماوات التقت وجوهاً غالية . رشت عليها الحنين والقبلات . كانت كمن يودع الدنيا قبل أن تودعه الحياة .

تأوهت . تنبّه أن محاولاته تؤلمها . أرخى العقد . اعتذر :

«غداً أعيده للصائغ كي يوسعه» .

«تمنّته يأتي»

يوسع دائرة الليل . يُخرس نعيق الوحدة . يهمس ألف مرة ـ أحبك ـ يمرّغ شفتيه من بدر جبينها حتى شفتيها المنفلقتين كحبة المشمش يهبط إلى الحدائق يرشف رغوة البن . عصير البرتقال ، يغوص في الأدغال يرش أعشابها ، يطعم عصافيرها . يدربها على الطيران يفتح لها الشبابيك لتشهق وتغرد .

«لو يأتي الآن» .

شهقت بأمنيتها وابتلعتها . واصلت مهمة الصبر التي أدمنتها منذ أربع سنوات تعاقبت فيها الفصول وهي تحضنه بين محيط القلب والجسد . تلتذ عذابه . تستعذب غيابه الأكثر اتساعاً من حضوره . تقبل اعتذاراته ، ترضى بانحنائه لظروفه ومخاوفه . تقنع بأحلامها تراه يمثُلُ بين يديها يُضيؤها بالتفجر ثم ينسرب وتبقى قمراً يتفتت صحن فضته ويتناثر في الفضاء الأسود .

تحتاجه... يبدد السواد . وينثر الفضة . ليس من وسيلة لانتزاعه سوى الهاتف .

تركز نظراتها على السلك الحلزوني المتدلي كمشنقة . أرقام هواتفه محفورة في الذاكرة . وجهه ينتشر مضيئاً على الجهاز . تهم ترفع السماعة . تصرخ فيه : تعال . تنفضه من فراشه ليترك الأخرى معفّرة بدهشتها ويطير إليها يُطفىء جمرة الجسد .

تتراجع .

تُعدم الفكرة المجنونة قبل أن تنفلت سلاسل وقارها . تتذكر وعدها الدائم له : «لن أدمرّ حياتك» تتذكر امتنانه «لم تُحبني امرأة وتخاف عليّ مثلك» تتذكر إعجابه الشديد بإيثاريتها : «أول امرأة أحبها ولا تحوك خيوط العنكبوت من حولي» .

تشفق عليه . تتركه آمناً في فراشه . تعزّي نفسها أنه يستدير عن الأخرى متظاهراً بالنوم . سابحاً في أحلامه معها يتَشهاها كما تتشهاه . ويرسم لحلم قريب .

تستجدي النوم . يبخل .

تحدق إلى اللوحة المعلّقة عليها سلاسلها الفضية والذهبيّة . يتماوج عليها الضوء الأحمر . يعكس خيالاتها المستطيلة حتى السقف تنفرش خطوطاً . تتكاثر . تثخن . تثقل . تتدلى من كل نقطة ، تتلوى أطرافها . تنعقد دوائر . تصير حبال مشانق . تلتف على جسدها تقترب إحدى الدوائر لتصطاد عنقها . تقاوم . لكن الدائرة تنتصر . تدخل عنقها . تضغط... تشد... تشد... تسمع صوت عظامها يتمزق... تصرخ... تصرخ... تتلاشى في الظلمة .

١٩٩٦.

رائحة الجسد...
رائحة الرماد

انتفضتُ كزهرة فاجأتها الريح . للوهلة الأولى تصورته يأتي من محطاته البعيدة ليغتصب هدوئي . لكنني بعد أن تفرست في ملامحه اكتشفت أنه مجرد تشابه كبير هز ذاكرتي التي دربتها لسنوات حتى تخلصت من الصورة .

لاحقني وجهه طوال النهار . تربصني شعور أن الليلة ستكون غير كل الليالي التي أقضيها مرتاحة في فراشي لا تهز عروشه الرياح . لم يكذب إحساسي . حين استرخيت في الفراش هرب النوم ولذة النعاس . تشرنقت في ظلال الوجه الذي داهمني في الصباح . تحول الفراش صبّاراً وشوكاً . وبدأت موجات التعرق والارتعاش تتخلل جسدي . والليل ذو الأنياب الباحث عن لحوم المستسلمين للفراغ والذهول ، يجرؤ الليلة ليغرز أنيابه في لحم وقتي...ي ب ع ث ر ن ي فأحوس مثل قطة أضاعت صغارها . أبحث عن أي شيء أقتل به الوقت .

أفتح «الكوميدينو» أستل المرآة المكبرة . ملقط الحواجب . أبحث عن شعيرات زائدة في الحاجبين . عن رأس بذرة طفرت من الجلد . عن

www.mlazna.com-RAYAHEEN

أعشاب العمر تحفر قنواتها في الجبين وتحت جفون العين . ألمحها خفيفة . أرتاح أنني ما زلت أغالب تعرجات الزمن . أتذكر شهقة صديقتي التي التقتني بعد عشرة أعوام من الفراق وسألتني : أين تخفين السنوات فقلت وراء ظهري . وحين طلبت وصفتي الناجحة للحفاظ على تألقي أفهمتها أنني أمارس لعبة الشجاعة ضد الزمن . لكن شجاعتي تتوارى الليلة . أستنجد بالراديو الصغير . أبحث في المحطات المستيقظة عن رائحة اللوز في صوت فيروز . عن «صوت السهارى» في الشواطىء المبللة ورائحة «النيل الخالد» . لكن الألحان تذوب في هذر التمثيليات الرديئة وهدير الأخبار الدامية . أفتح دفتر الكلمات المتقاطعة . أنسجم مع مربعاته . لكن! من أين لي أن أعرف اسم أنثى الحمار! كلمة تنتأ لا أعرفها تعكر مزاجي . أقذف بالدفتر يصطدم معفراً بقاعدة الأريكة .

أعود لبعثرة المحتويات في الدرج . ألمح حبات النعناع المتناثرة ، ألتهم واحدة أقرضها فتفوح الرائحة العطرة . يفوح من أعماق الذاكرة صوته :

ـ لا تمصي النعناع . ينعشني ثغرك مجرداً من أي شيء .

أتذكر كيف كانت الكلمات تفرحني . كيف كنت ألتصق به . أتنفس في شعره غابة «التمباك» . كان هذا في سنوات الحب المثيرة ثم صار للحب رائحة الزرنيخ . فصرت أصرخ فيه إذا اقترب :

ـ لاتلمسني .

ـ أشتهيك .

ـ أنا ما عدت أشتهيك .

ـ لا أصدق : أين نارك التي لا يهدأ سعيرها ؟

ـ أنت أطفأت النار . وقبلها أطفأت قلبي .

كنت أرشق كلماتي في وجهه وأستدير عنه . أتركه يتآكل من شوقه ولا أندم لأنني ما عدت مجذومة بحبه . لكنني ظللت بجانبه مطفأة كجمرة في قلب الرماد . حبيسة فراش يثير قرفي ويهرش عمري . لم يبق معنى لمكان لا تتوالد فيه الرغبة . ولا يفوح بطعم القرنفل . وكان السؤال يعذبني : هل كان الحب قشة واحترقت ؟

أُطفىءُ النور . لا شيء قادر أن يحمي ليلتي من صورة الوجه . أتقلبُ . ينتصب في زاوية الغرفة جسد . ظلّه على الجدار عنق رجل . رأس رجل . النور القادم من الحمام يضاعف المشهد . ألمح كفين كبيرتين مشرعتي الأظافر تمتدان كالسيوف نحوي . هل جاء حقيقة ليغتالني! أم لينالني عنوة كذلك اليوم الذي آمن فيه أننا نحن النساء «حرث لهم» . مارس حقه اغتصاباً قاسياً . سحقني . تركني ملوثة في الفراش أنزف دمعي . وخرج منتصراً .

أذكر تفاصيل ذلك النهار . ليته صفعني . داسني بحذائه . بصق في وجهي . كم كان هذا أسهل من افتراس جسدي الذي حرسته عنه . وعاطفتي التي مات ألمُها . أذكر كيف تحولت ذلك اليوم إلى كائن غريب . شيء ليس كالحيوان . ولا كالزاحفة . شيء هكذا كالكتلة يختلط رأسها بأطرافها . رخوة تنطبق أجزاؤها ، وكلما حاولتُ أن أشد أعضاءها تمتط مصدرة صوتاً . ورائحة كرائحة اللحم المتخمر . تحسست الكتلة . مجرد جلد أجرب تنتشر عليه قروح نافرة وأخرى مضغوطة تشكل حفراً مليئة بوحل لزج تفور منها حرارة كالجمر تهرشني . فلا أجد كفي لأسكت الحكاك . بحثت عن شكل وجهي . لم أر إلا مسخاً . عين خضراء تفرز لعاباً كزبد البعير . فتحات الأنف ثقوب متحجرة . شفتان خاويتان يتدلى منهما لسان مزروع بالدمامل .

لست أنا! لقد شوهني . دمر جسدي الأملس . تجشأ انتصاره الزائف وخرج .

ظلت تفوح مني رائحة أشهى منها رائحة القمامات المهملة . سكبت زجاجات العطور . صلبت جسدي في جحيم الشمس . احترقت وجذبت الرائحة الذباب ليمتص قيحي . هرعت إلى الحمام . تكومت على أرضيته الناصعة كصرصار فاجأته فوهات علب الفليت فداخ بين الموت والحياة .

بكيت . كانت لدموعي رائحة حامضة . بصقت . خرجت البصقة ملوثة برائحة بارود محترق . رائحتي لا أحتملها . تحاملت على نفسي . زحفت بكتلتي الرخوة إلى «البانيو» . نزف «الدش» مطره البارد ثم الحار استسلمت له علّه يغسلني ويضيع الرائحة لكن فوحها ازداد . استخدمت الصابون المعطر . «الشامبو» الفاخر . صابون «التايد» الذي يغسل أكثر بياضاً . لكن مفعوله أخفق فشتمت الإعلانات الكاذبة . لم يبق أمامي إلا «الكلوركس» أفرغت زجاجة كاملة . فاحت الرائحة . ذكرتني يوم شممت رائحة تشبهها في ساتر أمي حين أمرتني أن أغسله . قرفت وسألتها السر فقالت وقد غزا وجهها خجل معجون بالغضب : اغسليه ولا تسألي . سنوات طويلة مرت قبل أن أكتشف سر الرائحة . عرفت أنها نزف أبي الذي يشدها من ذراعها آمراً أن تلحق به إلى غرفة النوم . تخرج بعدها معفرة الشعر . تحتل زنديها وعنقها الثخين البقع الحمراء .

في ساتر أمي كرهت تلك الرائحة . لكنني في ليلة زواجي عرفت أنها مطر الرجل العاشق . وليلتها كنت العاشقة والمعشوقة فأحببت الرائحة . سعيت إليها كل الليالي وسنوات الحب . رائحة «الكلوركس» لم تبخر رائحتي . حتى الديتول بعطره المركز لم يزل الرائحة النتنة . قد يفيد كشط

الجلد . لكن الليفة الأسفنجية لم تنفع . ولا ليفة الحبال . ربما «سيف العبد» في الإعلانات يزيل أصعب المواد . هرشت جسدي به بلا رحمة . احتقنت شرايني الدقيقة . تفجرت الجروح وضاعفت الرائحة .

انزويت شهوراً طويلة . غير قادرة على مواجهة العالم من حولي خشية أن تزكم أنوفهم رائحتي الكريهة . وحده ظلّ يتابع خيبتي شامتاً مضيّقاً القيد حول معصمي بعناد رهيب حتى فاجأته بصرختي فعادت الكتلة جسداً جميلاً بلا رائحة .

هل اخترق جدارات الزمن وجاءني الليلة ليشوهني ؟ الظل يتحرك على الجدار كفي المرتعشة تمتد إلى نقطة الضوء القريبة . أفتحها ينتشر الضياء . يتلاشى الظل المخيف . أتحسس فراشي الذي لا ينازعني فيه أحد . أتنفس رائحتي شهية كالنعناع .

١٩٩٥

حلم الطواويس

كنت مستسلمة لذلك الشيء المغناطيسي يقودني خلف حشود الناس السائرة عبر الطرقات الضيقة . دوّامة الظلام منتشرة . الرطوبة خانقة ، ورائحة الأرض التي قطفت دفء الشمس تفوح مختلطة بروائح المواقد التي زفرت نثيث رمادها .

عيناي تستعرضان «درايش» البيوت المواربة . أبوابها الخشبيّة ذات الشقوق ، فوح الأحواش يتسرب ، ورنين أصواتها يفر علناً . حوارات ، شجارات ، مداعبات وبكاء أطفال يؤرجحهم النعاس . تتجدّل كلها حكاية واحدة تصب في قلبي ، تثير قشعريرة حنين يجرفني لحضن جدتي الدرداء . وتحرك سواكن شوق لرؤية وجهه الغائب منذ شهر .

مسيّرة خلف الأفواج . لا يتزاحمون حتى حين ضاقت بهم «السكة» التي شارفت بعد الظلمة على باب مدرسة قديمة تزيّن سورها العتيق وبابها الحديد المتآكل باليافطات ، الأعلام ، أوراق الزينة . وقد سطعت حولها الأضواء الملونة .

دخلت الجموع . مُمَغْنَطَة دخلتُ وراءهم . واجهتني ساحة تعج بطاولات

www.mlazna.com-RAYAHEEN

رُصّتْ عليها مشغولات يدويّة زاهية . معرض يَسُرُّ النظر ويغري بالشراء .

دون تركيز كنت أمر بالمعروضات . نظراتي تشب على الوجوه . أتميّزها آملة لو ألتقط وجهه الأسمر . شيء ما على إحدى الطاولات رفَّ له قلبي فاستوقفني .

حدقت إليه . ذلك المفرش الدائري الأخضر . تتربع في وسطه دائرة قلب الشمس تتشكل خيوط أشعتها من زهور المارغريت المطرّزة باللونين الأصفر والبرتقالي تصل حتى حدود الحواف المنثنية بغرزة «الفستون» الدقيق . التقطته بفرح ، ضممته بشهقتي الحارة إلى صدري . حضنته بلذّة . تشممته . كدت ألتهم زهوره التي عبقت أنفاسي .

دُهِشَتْ البائعة . خطفته من يدي . همستُ بوجع :

ـ هذا المفرش لي . طرزته يوم كنت طالبة . وفي معرض كهذا أعجب به «مدير المعارف» طلب يشتريه . فرفضت بشدة . تدخلت الناظرة لترغمني لكنه بحنان أبويّ تركه لي . الغريب أنه اختفى بعد نهاية المعرض . سنوات وأنا أبحث عنه . فكيف جاء هنا ؟ ؟

ابتسمت المرأة التي صبرت تسمع حكايتي . قالت :

ـ لعلّه فنّك . وتوارثته الأجيال .

استللته من يدها برجاء :

ـ أريده .

تأسّفت :

ـ محجوز . وقد دُفِعَ ثمنه .

غادرت المكان وحبال قلبي الحزينة معلقة به .

متوّهة تعرجت بأزقّةٍ غريبة . تخلو من البشر وتكتظ بخيالات غريبة تتراقص فوق الجدران الطينية . تقتحم سمعي تأوّهات لعشاق يتلاصقون ، زحفُ حشرات شبقة تتطارد . أنين نسوة وحيدات .

واصلت أمشي مسحورة بهمس الليل ورعشَ النجوم . لم أنتبه إلى أنني تماديت في إغواء السير إلاّ حين شعرت بزحام مثانتي . استجرتُ بالبيت الذي لمحت بابه نصف مفتوح . حثثت قدميّ المتوهتين .

دخلت .

فوجئت بدهليز أشبه بتجويف مغارة مهجورة . ما كدت أصل نهايته حتى استنفر طاووس كبير ذاته أمامي . أشرع وجهاً قبيحاً تتخالط فيه أشباه الضواري بالطيور الجارحة . لفت نظري حبل رفيع حول قدمه اليمنى . مثّبت طرفه الآخر بوتد ثخين مغروس في الأرض .

أخذ يروح ويجيء . إذا تقدّم انتفش ريش ذيله الملّون . وإذا ارتد انطبق الذيل مثيراً صوتاً كخشخشة قراطيس الإسمنت الفارغة . بغدوّه ورواحه يمنع دخولي . لكن حاجتي الملحّة جعلتني أترصد لحظة ارتداده وأتخطاه . «زقا» خلفي محتداً فلم أكترث .

واجهني الحوش بسكونه وظلمته . ثمة سراج يتيم يتأرجح في زاوية الليوان ينفث شعاعاً واهناً ، مكّنني من رؤية ما حوله . أجساد رجال ونساء تتدلى عارية وكأنها مشنوقة بسقف الليوان . على الجدران توزعت قرون ملتوية . ألسنة طويلة مدقوقة كالتعاويذ بمسامير ثخينة . ذيول أبغال وجياد بالية ، وجماجم قرود تطل من محاجر عيونها ألسنة تتلوى كما ديدان «الأسكارس» الجائعة . كنتُ كمن زلّت به القدم إلى كهف تسكنه الساحرات .

حاجتي تستحثني أندفع نحو باب أدركت ببصري وحاسة شمي أنه «بيت الخلاء» . حاولت أتحرك . لكن الرعدات التي تناوبت على جسدي سمّرتني في مكاني ، وتابعت عيناي تجوّلهما في الأنحاء الأخرى من الحوش ، كومات من سعف وقرم تلتمع بين فجواتها عيون قطط متحفزة . في الزاوية اليمنى حوض كبير رُصِفَتْ حدوده بلا تنظيم بقطع الطابوق . في جزئه الأوسع نباتات اشرأبت قاماتها وبدت رؤوس بعضها وكأنها اجتُثّتْ قبل أيام . بين المزروعات تنتصب العصيّ الخشبية مكسوّة بأقمشة مهترئة . تعتمر رؤوسها طاقيات وغُتَراً مربدة .

في طرف الحوض قفص مكتظ بدواجن غريبة تتقافز . وتتعاضض . قبل انتقال بصري كان الصوت يباغتني . انتفضت نظراتي نحو المصدر . رأيتها هناك . كتلة من سواد لا يتحرر منه سوى وجهها ذي البياض الصارخ . تحمل بيدها زنبيلاً تطل من جانبيه رؤوس ديوك روميّة تزعق بصوتها المنفّر . من عمق حنجرتها الحادة شخط صوتها المسافة آمراً :

ـ اذبحها . وعلق رؤوسها .

صوتها الذي أفزعني جعل مثانتي تتشرب سائلها فجأة . مطت ذراعها حاذفة الزنبيل إلى الجانب الآخر .

رأيته!!

لحظتها شعرت دمي كله يتبخّر .

خنقت المفاجأة حركتي . شلّت ذهني . كان يقف ذليلاً مكسوراً . ذلك الشامخ بكبريائه الجميل ، الأنيق ، النظيف . أراه بهيئة غريبة . يرتدي دشداشة قصيرة معفّرة الأجناب . غترته بلا عقال تتراخى على جانبي وجهه الذي ابتلعت نصفه لحية سوداء غير مشذّبة .

تطايرت حصى الأسئلة تضرب رأسي : ما الذي جاء به إلى هنا ؟ ؟ ما علاقته بتلك المرأة ؟ ؟ ولم بدّل صورته الجميلة ؟ ؟

قاومت عجزي . تحركت ببطء أقصده . استوقفني صوت المرأة ورمح سؤالها :

ـ هيه! أنتِ . ما الذي جاء بكِ؟ ؟

دفعتُ صوتي الراجف :

ـ يبدو أنه قدري الأسود .

ـ ماذا تريدين ؟ ؟

ـ «بيت الراحة» لأفك عن نفسي .

أشارت إلى الباب الذي لم أخطئه :

ـ فكي عنها هناك .

مشيت . ووطء ثقيل يدب على قلبي . وعيني لا تفارقه بوقفته الذليلة .

دخلت .

الظلام دامس . تركت الباب موارباً لتدلف حزمة ضوء من السراج . كان المشهدالمفاجيء قد طحن خزين أمعائي . قرفصت فوق فوّهة المرحاض الأرضي أدلق تعبي ، تناهت من الفجوة همهمات مكتومة . أصوات حيوانات تعوي وتصرخ كمن يَستنجد ، على الجدران الخشنة سحالي تتسابق وتفح .

كان قلبي يتلاطم بداخلي . مهجتي تتألم ، عيناي تمطران ، شفتاي تبتهلان إلى الله أن يرحمني من مجهول بانتظاري .

في لحظة خروجي شعرت بأذرع تدفعني . تتخطاني . تتكسّر أمامي . تتناثر حولي أصابع عارية من اللحم تلتمع أظافرها الطويلة بلون الدم

المتخثر . قفزتُ وقد تغبشَتْ عيناي . وتشبّعت ثيابي العرق والروائح الكريهة .

وسط الحوش فوجئت بأريكةٍ غريبة لم تكن موجودة حين دخلت . فوق ظهر الأريكة جسد طاووس يتطاول رأسه مرتفعاً نصف متر . يعلوه تاج مرصع بفيروزات كبيرة . ينفلش الذيل مروحة منقوشة بالرسم مزينة بفصوص يشع منها بريق ألوان مختلفة .

كانت المرأة جالسة . مُسندة رأسها إلى صدر الطاووس . وما تزال ملفوفة بسوادها . هو يتوسّد ركبتيها ماطّاً جسده بمحاذاة جسدها الممدود حتى نهاية الأريكة . يقرأ في كتاب سميك غلافه أسود . كفها تداعب شعره المتموّج بالشيب الذي أعشقه .

حرثت الغيرة صدري . اندفعت نحوهما . صدمتني عيناها الواسعتان . جاحظتان برموش قصيرة . تجاهلت نارهما . أعطيتها ظهري . دفعت جسده برفق . استجاب دون أن يحرّك ساكناً وكأنه مخدر . جلست في المساحة التي ما كادت تستقبل نصفي ، شعرت أصابعها كالأشواك تخز ظهري . تشتمني ونثار لعابها يتساقط بارداً فوق عنقي . كان غارقاً في القراءة وكأنه لا يسمع ولا يرى ما حوله .

هززته أكثر من مرّة حتى تنبّه . وما أن لمحني حتى هبّ مصعوقاً . طار الكتاب من كفيه ، لم ألتقط عنوانه ، تناثرت أوراقه ، كانت عيناي تتابعان هروبه باهتمام وقد خلف رائحة زفرٍ قديم .

أطلقتُ قهقهة ساخرة . شعرتها كصوت ذلك الديك الروميّ الذي لاحقني طفلة في مزرعة «أبو يوسف الفنطاسي» . استدرت إليها . التقطت باطن حلقها قبل أن ينغلق على طواحينها الملينة بالتسوّس .

مدت ذراعها نحوي . فانزلقتُ حتى نهاية الأريكة في مواجهتها . بادرتني ضاحكة :

ـ طبعاً! يدهشك وجوده هنا .

متلوّعة قلتُ :

ـ شهر أبحث عنه . وهو في الظلمة والظلام .

وأشرت للحوش وإليها .

زمّت بين حاجبيها . بدت عيناها فانحتين بالغضب :

ـ دعيه يتعلم ما لا يعلم .

هزئتُ :

ـ منك أنت ؟!

هدّد صوتها :

ـ لا تستهيني بي . عروشنا تشهد لنا .

ودقّت رأس الطاووس فأصدر اهتزازات ثم هدأ .

لويت شفتي ، هززت سبابتي بوجهها العريض :

ـ اسمعي . ما علاقتك به ؟ أريد أن أعرف .

بوقاحة فاجأتني تؤرجح كفها بيننا :

ـ لم تعرفي بعد ؟ نحن شريكتان به .

دقت كلماتها أوتاد الجمر بلحمي . صرختُ :

ـ هل تزوّجك ؟

ـ ليس بالضرورة! رجل يبحث عن المتعة .

ـ هي الغواية إذن ودعوة الشيطان . اشمأزت نفسي ، أشرت لحجابها :

ـ وهذا ؟

دمدم صوتها بحدّة :

ـ هل يمنع ؟

فكّته . ألقت به إلى الأرض فاح عطن غريب حين تهدّلت خصلات شعرها المصبوغة باللون الذهبي . واصلت تخلع رداءها الطويل . برز جسدها أمامي . سحبتُ حمالة الصدر . ترجرج ثدياها وانزلقا حتى البطن ذي الطبقات الشحميّة . قرفتُ . أشرتُ لجسدها :

ـ معك أنت! أي متعة ؟ ؟

فركت راحتها اليمنى المصكوكة في قلب الراحة اليسرى المنفرجة تغيظني :

ـ هو يعرفها . ومع ذلك . سأسمح أن تتقاسمه .

لطمتني الكلمة :

ـ هل هو ذبيحة ونتقاسمها ؟ ؟

ـ الرجال كباش . وعلينا ذبحهم .

نبهتها :

ـ هم أيضاً ذئاب . يستطيعون افتراسنا .

انشرح وجهها وكأني قدمت لها عذراً :

ـ من باب أولى إذن . نتغدى بهم قبل أن يتعشوا بنا .

أغرورق صوتي :

ـ هذا إن كنا نكرههم . ماذا لو كنا نحبهم . نعترف بوجودهم الجميل وحنانهم الأجمل ؟ ؟

هزت كفها في وجهي كمن تطرد كلماتي :

ـ أنتِ امرأة خيالية . أفسدتك فلسفات الكتب .

ـ وأنتِ ؟ ؟

بغرور اشرأبت بعنقها . أشارت لذاتها :

ـ أنا امرأة واقعية . لا أُخضعُ قلبي لكائن واحد يتحكم فيه . أوظف الحب لأغراضي .

تحسرتُ . تأوهت :

ـ ويلي على الحب .

صرخت في وجهي :

ـ اسمعي يا أنتِ . لا تولولي أمامي . هذا الذي تحبين تبدل الآن . هو يحلم بجنةٍ غير جنتك .

حرقتني كلماتها . وددت لو أقفز . أمط لسانها أذبحه بأظافري . لكن السؤال وحده قفز من لساني أشبه بالتوسل :

ـ ماذا تريدين منه إذن ؟

وكأنها كانت بانتظار سؤالي . عدّلت من جلستها :

ـ أمثاله حين لا تعجبني أفكارهم . أضمّهم لجماعتي . نطهّرهم . ولا بأس في أن نحلب جيوبهم الممتلئة .

شعرتها أحقر من حشرة . قبل أن أنطلق تلوّت بجسدها العاري كثعبان ، التقطت رداءها وحجابها ، فحّت في سمعي :

ـ ذاهبة لأصلي . تأتين معي أم أنك لا تصلين ؟

ـ وهل تشفع الصلاة للخطايا ؟ ؟

سخرت :

ـ أعرف صلاتك تختلف عن صلاتي .

بهدوء أجبتها :

ـ تختلف النيات ؟

غادرتني . دلفتْ إلى إحدى الحجرات . صفقت الباب بعنف أفزع الدواجن في قفصها . طوّقتُ رأسي الحائر بين كفيَّ الباردتين . طنين يخوّض في الفراغات ويحرّك أوجاعاً تكاد تفصله نصفين . ما الذي أسقطَهُ في كهفها ؟ هل سحرت له شرب « سقوتها » المشؤومة ؟ أمثالها تتلبسهن الشياطين بأثواب التقوى الكاذبة .

سرت إليَّ نحنحة لا أخطئها . حررتُ رأسي . التقطته عيناي المبللّتان بالدموع . هرعت إليه ، هالني اختفاء النباتات . رأيت الأرض كتلاً من الطين الرخو تنتشر في ثناياه ديدان صفراء ثخينة . اقتربت . غاصت قدماي تفتقان بطون الديدان فلا أبالي . انحدرت حيث يجلس منكساً يفرك كفّيه بعصبيّة واضحة . قبضت على زنديه . خضضته بشدة لأوقظه من متاهته :

ـ ما الذي حدث لك ؟

توسل إليّ :

ـ لا تغضبي . أنا متعب .

وافقته :

ـ أعرف . وهذه الهينة ؟!

شددت أطراف غترته . وقبضت على شعر لحيته برفق .

تألم . تغاضى . جاء صوته أليماً :

ـ لا أدري كيف فرضت عليَّ ظلامها .

واجهته :

ـ ضيّعت نفسك . وطأت أرضها التي لا تستحقك .

بحزن :

ـ سمعت كلامكما . أدركت الآن زلّتي . أرضها «صُبَخ»* . أرض ملعونة .

واستشاط .

دس يده تحت الدشداشة . سحبه . بدأ يتبوّل بغزارة عجيبة . أخذ السائل يشق قنواته في الطين . طفح إلى الحوش ، فاض حتى الليوان وأبواب الحجرات . صوته يهدد مكرراً :

ـ أرض هذه المرأة لا تستحق إلاّ هذا .

من بين صرخاته اخترقتني همهمة صوت : هُسْ ... هُسْ...

التقطت وجه امرأة عجوز . تحمل سراجاً . تشير إلى صدره مفزوعة ركزت بصري لمحت «ضبّاً» بطول ذراع يهمد عليه . رجوتها بصوت خفيض رغم ارتعادي .

ـ لا تفزعيه . قد تسبب له «الخرعة» عجزاً .

www.mlazna.com-RAYAHEEN

لم تستجب لرجائي . صرخت :

ـ خلّصيه من محنته .

هبَّ فزعاً يُطاشر عليَّ فما همّني . لحقت به . بشجاعة حذفت الضب . ارتطم بالأرض وتناثر الرذاذ .

كان يواصل صراخه . اندفعت إليه . حضنته . أوقفت حركته . شعرت جسده يكاد يتهاوى . وتفوح منه رائحة لا أطيقها .

انفرج باب غرفتها فجأة . اتّسع حتى التهم مساحة الجدارين المحيطين . بدت الغرفة خلفها وكأنها إيوان . أعمدة رخامية لامعة . جدران مكلّلة بسجاجيد منقوشة بالحكايات القديمة . ثريّات بحجوم كبيرة تتدلى بأضوائها الوهّاجة تكاد تخطف البصر .

تصدرت الباب حاملة عصا كهرمانية تنتهي برأس ثعبان ذهبيّ . برزت خلفها عشرات الطواويس فاردة ذيولها . يقدح من عيونها الشرر . تبرق فصوص تيجانها بشتى الألوان كل واحدٍ منها يحمل شمعداناً ذا لسان من اللهب .

لوّحت بعصاها نحوه :

ـ لوّثت أرضي الطاهرة .

تحدّاها :

ـ كما تنوين تلويث أرضنا .

هدّد صوتها :

ـ إن لم تشرب نجاستك . سيغرق الطوفان مدينتكم حتى البحر .

خوّض الأرض باتجاهها . قبل أن يقترب كانت عصاها تصدر صاعقها . توقّف كاظماً غيظه الذي تحوّل بصقة كبيرة نحوها .

زقّتْ الطواويس بأصواتها الكريهة . تحركت وبإشارة منها . أوقفت تأهبها . انفلتت إليه ملتاثة بحمى الغضب . عفونات صوتها تتطاير :

ـ من تظن نفسك لتتحدى الأسياد! سأكسر «خشمك» .

أسرعتُ إليه . سرّبته خلفي ، وقفت حاجزاً بينهما متأهبة للدفاع عنه .

انفجرت بوجهها :

ـ سيخرج من الظلمة ولن يعود .

أمسكتْ بعنقي . شدت عليه بأظافر مسنونة . شرقتُ . استفزه الخوف عليَّ ، استأسدَ وحرّر عنقي . رفع كفاً ما تصورته ، وهو الحاني الرقيق ، يقذف هذا العنف ، صفعها ، تهاوت . زعقت الطواويس . شدني من كفّي :

ـ أسرعي لنخرج .

رفعت عصاها . هزّتها . أصدر ثعبانها صرخة . فانتقلت الطواويس إلى الحوش ، حاصرتنا . صوتها يحثهم . صوته الشجاع يبهرني :

ـ سنقاوم .

انحنى . التقط العصا . أخذ يصد الهجوم . سقطت التيجان . تطاير ريش الذيول . صوتها يصرخ :

ـ اقتلوهما .

مد ساقه . أسقط قدمه فوق رأسها الذي حاولت أن ترفعه . ضغط عليه حتى أغرقه . خارت قواها . خمدت أنفاس جنودها .

أسرع بي إلى الدهليز . انتصب الطاووس المربوط غاضباً . عاجله بضربة ألصقته بالحائط وألجمت زعيقه .

دهشت حين وصلنا الباب . كان بهاء الشمس يفيض . الشارع يعج بالحركة . صوته مرتاح :

ـ أخيراً سنخرج إلى النور .

أغلقت الباب . همست لانذة بصدره :

ـ لا أريد الناس يرونك بهذه الهيئة . ننتظر الليل .

داعب شفتّي . صب نداءه في لحم أذني :

ـ تمنّيه الآن يأتي . سرّك الذي أعرف .

وأشرع الباب .

فوجئت بهدأة الليل . هدأة صافية تعيد للروح عذوبتها . السماء الحريرية تطرّزت بالنجوم وألق القمر . الصمت غلالات من الندى . ابتسم بحنان :

ـ ما رأيك ؟ ؟

ـ ظلام منير . ليس كتلك الظلمة .

خرجنا .

أقدامنا تلثم التراب . متلاصقين نعزف خطوة موّحّدة . يضمّني . يسري بيننا دفء عجيب . قطعنا شوطاً . سمعت لهاثه . توقفت :

ـ تعال نستريح .

أشرت لشجرة منحنية عند حائط هَرِم . أسقطنا جسدينا تحت فروعها

القليلة وأوراقها المتهدلة . وساقها المتعرج الذي قشرت الريح لحاءه . أسندت ظهري إلى الجدار . جلست بقربه نلوذ بالسكون الجميل . ضم ركبتيه . ألصقهما بصدره . حاوطهما بذراعيه . أسقط رأسه . أجهش . عاتبته بحنان :

ـ تبكي . وأنت سيد الرجال . وسيد قلبي ؟

فك حصاره . ارتمى عليّ . تشبّث بي كطفل يتيم يترقرق صوته :

ـ يوجعني خطئي . هل تغفرين ؟

رغم جرحي المتشظي . سمع ردّي المتعثر :

ـ من يقدر على الحب ، لا يعجز عن الغفران .

التوت ذراعه حول عنقي . امتصّ وجنتّي . شعرت دماغي تطفح على وجهه المنشرح ، دافئاً انسرب إليّ صوته :

ـ أحمل لك هديّة .

من جيب الدشداشة أخرجه . فرده أمامي على التراب . أشرقت في وجهي بوابة الجنّة . تساقط اللؤلؤ من نوافذها . شتلة الشمس المطرّزة بالمارغريت الأصفر والبرتقالي تضيء كل عمقي ، شهقت :

ـ من أين جئت به .

كركر منتشياً بفرحي . فاخضرت بي الرغبة أن أقضم ضحكته الشبيهة بتفاحة طازجة .

ـ أعرف ما يعنيه لك هذا المفرش . وجدته في المعرض .

كفّاه المملحتان بعطر البحر حطّتا فوق وجنتيّ . ثغره العابق بالهيل

يشرب حبات دموعي . شعرت آلاف العصافير الضالة تزقزق حولي . وتحط في مأواها داخل قلبي .

أحداق النجوم ارتعشت . انهمرت إليّ كأطفال يتأرجحون بجدائل الأمهات .

وقف .

رأيته بصورته التي أعرف ، طويلاً ، زاهياً ، مؤتلقاً بالسمو والجمال . غابت عنه تلك اللحية السوداء . ازدهر وجهه بالنور . رفعني من مكاني . سمعت ارتطام رأسي بالشجرة «والآخ» التي أطلقتها قبل أن أسقط .

* * *

من أدغال النوم . سرى صوته النعسان :

ـ بماذا كنت تحلمين ؟ ؟

تثاءب صوتي :

ـ مجرد حلم فارغ الجذوع .

احتواني بذراعيه . حارّة كنت كالجمرة . تلاحمنا بشوق . في وصلة التداخل ما عدت أعرف أي الجسدين لي ، وأيهما له . حين صك على شفتّي كنت أصارع شتيت أفكار يعصف برأسي .

١٩٩٧

الليلة ترقص شهرزاد

في لحظة متلألئة . انفصلت عن الواقع . أغلقت أبواب النهار . أخرست ضوضاءه التي تمتص حياتي في دوامة لا تنتهي . تحولت نجمة ترتدي ثوبها الشفاف . وتلبي دعوة القمر آملة أن تسقط في حضنه وترتوي .

جلستُ على الأريكة الوحيدة . احتضنت بحنان شديد جسدي الذي غسل ملحه وتعطر بالبنفسج . استللتُ شهيقاً عميقاً شعرته يرتد إلى صدري حاملاً شيئاً كالمخدر سرى في أعضائي سريان ثعبان ناعم . استسلمتُ للدغدغة المتوحشة . دخلت عالماً مؤنساً زاخراً بالبدائع والجمال .

بدأت عيناي تجولان في المكان المدهش . عالم كما الحلم يحولني فراشة تطير من بقعة لأخرى غير آبهة أن تحرقها بقع الضوء المتناثرة . تحط على غصن . تلثم جداراً . وتتمرغ في كف عصفور . ثم تعود إلى الأريكة امرأة ملغومة بالسعادة واللهفة .

موسيقى نادرة تنبعث من الجدران المحيطة . تحرك الأشياء الصغيرة المتدلية من السقف : حبال قديمة . سراج مطرز بالألوان . «زنبيل» قديم

تطل من عنقه أعواد ريش النعام الزاهية . قواقع مشكوكة بخيوط الشبك ، تنتهي بنجم بحر يفرز عرقه القديم . كل شيء يتحرك راقصاً . فتدق في جسدي طبول غجرية مجنونة . أصير فارسة يصهل بها الجواد السحري يخترق الجبال . يشق الغيم . ويكتسح الريح .

غادرت الأريكة . بدأت أغزو المكان بخطى وئيدة . أندس في كل لوحة تصافح عيني . هي ذي الصحراء برمالها الذهبية المتموجة تدعوني .

«هيا تعفّري بالرمل الساخن .» وهذا البحر يصرخ بي : «قدمي جسدك هبة للمالح العاشق» . وهذا الشروق يهتف بحنان : «تشاءبي . وانطلقي نحو الحياة» . وهنا الغروب يهدهد تعبي . «هيا غوصي في قرص الشمس الذي تحبين وداعه . ونامي في قلبه الأحمر» . وهناك أبواب قديمة تتوسل إلي : «انفضي عني الغبار . اطرقيني . سوف تستيقظ لأجلك سلال النوير وترشك بالعبير» .

تقدمت نحو أحد الأبواب . حركت مزلاجه . دفعته فنشج صريراً حزيناً . وأمامي سطع وجه الماضي البعيد . ها هو الدهليز القديم . خرابيش طفولتي على جدرانه . رؤوس طيور وأجنحة حمام وأسماء رفيقات وارتهم الذاكرة . الدكة الطينية صامدة رغم تآكل حواشيها . تناثرت عليها أوراق شجر شائخة وخرطوم «قدو» ممزق . في الطرف الآخر أشياء مكومة . أخشاب . بقايا حصر مهترئة . «برمة» مكسورة تصلح عشاً لطائر تائه . صراصير ناشفة وخنافس داست عليها خطوتي فلم تفرز عصارة ولم تئن .

دلفت إلى الحوش . استيقظ الأمس . أسمع شخير نيام ، هديل حمام . أشم رائحة مواقد . يتلوى «الطرثوث» فوق جمرها وينضج «الفندال» . ألمح دلة قهوة تراكم عليها الصدأ الأخضر وتواريخ الأيدي التي حملتها

وعبأت الفناجين . في الزاوية «صفرية» محشوة بقراطيس وقش تفوح منها روائح بيض لم يفقس . جماجم قطط ميتة تناثرت ذيولها قرب «الرحاة» التي اهترأت ذراعها الخشبية . وانطرحت بجانبها «ركوك» التمر وقد جف الدبس بين أعوادها والتصقت عليه أجنحة ذباب .

أبواب الحجرات مشرعة بلا أقفال . اقتربت . دخلت إحداها . الأرض خالية إلا من تراب وفضلات فئران . الجدران مقشورة وشاحبة ، مساميرها الصدئة ما تزال عالقة بها . تراءت لي الصورة القديمة : ألمح «وزار» جدي . فتلحفني رائحة ليل . وأبوام . و«فطام» . أستل الإزار . أنفض غباره . أدثر به عنقي . وعيناي تلمحان عباءة جدتي وقد تآكلت جوانبها . وقرضت أذيالها الفئران . أسحبها فأشم رائحة سدرة . بخور . زعفران . ألتفع بها . أركض إلى الحوش ثانية فتعانق عيناي النخلة الشائبة . أهز جذعها المتخشب آملة أن يساقط الرطب شهياً . أشد سعفة متدلية . أتأبطها . تفوح رائحة «عذق» ودع صدر أمه . وتربع في صحن أمامي . أهمس حالمة : «غداً يصير رطباً فلا أترك منه غير النواة» .

انزع نفسي من البيت . والحجرات تشهق بالدمع . تصرخ ، تستعطفني : ارجعي . اسكنيني . رشيني بماء الغدير . أحس الصدى يلاحقني كنعيق بوم وثرثرة خفاش . أرتجف . أفر حاضنة ذكرياتي كي لا تسقط مني . أصفق الباب ينوح وهو يودعني ، ينفخ نحوي صلوات . ودعوات . الشارع الطيني يحتويني . أقفز فوق برك الماء الراكدة ، أقطع المسافات ، أرتمي فوق كومة تراب فتجرح جبهتي قطعة حديد منسية . أصرخ . أصحو .

ما زلتُ فوق الأريكة . ألهث بعد الرحلة الأسطورية . ما تزال الموسيقى

www.mlazna.com-RAYAHEEN

الناعمة تقيم أعراسها في المكان وأنا أنتظر . كم من الوقت مضى وهويتركني بين الدفء والرجاء ؟ لكنها المرة الأولى التي لا أستشعر فيها للوحدة طعماً مراً . كل شيء حولي ينبض بالحياة . يغني . يرتل . يهمس . يشهق ويرقص . يستفزني لأنتصب وسط المكان . تحت الضوء المنسدل على مشهد البحر وأتعرى من ثيابي . أرقص عارية كما ولدتني أمي إلا من «الشماغ» الذي دثر به عنقي قبل أن يخرج ويتركني وحيدة .

صوته يفاجيء أمنيتي . تموت الرقصة . يبتسم . ينحني إلى الطاولة الصغيرة . يضع كأس «شربت البيذان» . يتناثر شعره الناعم أمامي . أتمنى لو أدس أصابعي في هذا الليل المتشرد وأعابثه حتى يسقط الرأس كله على صدري وينام .

صوته يقتحمني :

ـ تعمدت أتركك في المكان لتتأملي . أعرفك تعشقين الأجواء القديمة ، كأنك تعيشين ليلة من ليالي ألف ليلة وليلة .

أغمضت عيني . تخيلتني شهرزاد الجميلة . أحتلُ المكان . أتمدد فيه ، أدخل جوف البحر . أسمع بقبقة الموج وهمس الهوامير . غناء بحارة طروب . وصوت شهريار بدفء يطلب الحكاية . سيفه بكفه منتظراً بزوغ الفجر ليهوي به على عنقي . تصرخ بي الحياة :

ـ ارفضي ذل الرجل . لا تموتي .

أفزع . أفتح عيني . أفرح إذ أراه أمامي وديعاً بلا سيف . السيجارة تحترق بين شفتيه تكاد تكويهما . أمد أصابعي أنقذ شفتيه . ينبع ألف شوق من عينيه . والغجرية بداخلي تستغيث : حرك السكون . أسقط الحجر في البئر . ازغب الماء . أفرغ الدلو الملآن يتفجر نهر تسبح فيه نساء القارات السبع .

شهريار نار تبتلع الحريق ، وشهرزاد نار يتلوى فيها اللهب . فمن يطفيء النار ؟

ألوان الفجر . الغابات المطرزة بألوان الجنة . البحر الرصاصي . الرمل الذهبي . ألوان العلب المتناثرة بأنواعها . مائية . زيتية . جواش . بعضها شرب دموع الماء . وجف . أخيراً . صار يملك ألواناً حقيقية . بالأمس البعيد كان طفلاً يشد على فحمته السوداء . يرسم على جدار بيتهم القديم شجرة . فأكتب بفحمتي عليها :

«الشجرة بيتي»

يرسم وردة . فأكتب على رأسها :

«الوردة عطري»

يرسم دلة وفناجين . فأكتب في حلق الفنجان :

«هذه قهوتي» .

ذات يوم فاجأني . سكب القهوة على فستاني الوردي الجديد . بكيت . مسح دموعي متألماً معتذراً .

ـ أريد أن تكرهي القهوة . إنها مشروب الكبار .

أيقظني من خيالاتي الماضية في العمق . قدم فنجان قهوة ساخن :

ـ معشوقتك السمراء . كم وددت لو كرهتها .

رائحة البن . هياج الموسيقى . لا شيء يحركه . لا يصرخ فيه شيء كما يصرخ بي . لا يشحن بالجنون . أريد أرقص . عيناي قالت . حركة ذراعي أوحت . شفتاي الناشفتان اللتان لم يمسهما الندى منذ سنوات رجفت . قلبي المصاب بالبلادة نبض . لكنه بارد لا يفهم لغتي الصامتة . هل

أزعق ملء صوتي : «تحرك يا شهريار وادع شهرزاد إلى الرقص ؟ ؟»

بدلال أطفال جميل . يطلب أن أقص له حكايات زمني الفائت . بعناد أرفض . ذلك الدوي بداخلي يهدد ويبتلع الخيبة . نحن وحيدان . عالمنا القديم برائحته ، وأشيائه الجميلة منثور حولنا فوق الجدران . على الأرض . على الطاولات التي لا تتشابه . والموسيقى تبعث الحرارة في كل شيء إلا هو! صياد طويل البال . وأنا السمكة بانتظار الشبكة تلفني خيوطها ؛ أو سنارة تنغرز في لحمي وتخرجني حية . أريد أن أجرب الحياة . أريد الليلة أن أرقص ثم لا يهم لو أموت . يدخل الأصدقاء . تطفأ الرغبة . أخرج من حلمي ينقذني حضورهم من السعير في داخلي .

تبدأ الحوارات باردة ثم تسخن . يسخن عالمي الصاخب ثانية ولا يهدأ . الشبكة تتدلى أمامي . السمكة تتأوه بداخلها . عذق مليء بالبلح يتغنج في طبق خشبي يغريني أن أتحول فأرة وأقرضه . هو أمامي يقدم أكواب الحليب المزين بالفستق . تتناوله الأيدي تريحه فوق الطاولة . أنا بلهفة أعبّه ولا أرتوي . تعتريني برودة . من يطفىء البرد ؟ ؟

شهريار يغيب للمرة الثالثة . الرابعة . ماذا سيحمل هذه المرة ؟ يدخل . كفاه مليئتان بأوراق مشموم مقطوف للتو . وزعها بين الحضور . خصني بالمزيد . أين أزرع هذا الفواح ؟ لم أخجل أن أدس كفي إلى صدري . أزرعه ناحية القلب . أنساه في الأمان حتى لحظة الانصراف .

أقطع الطريق الليلي . موسيقاه تسكنني . الرغبة أن أراقص أي شيء حتى لو كان الهواء تستبد بي . أصل البيت . يستقبلني سكون النائمين . أتحرر من الحذاء . من الأساور . الخواتم . وحين شددت حمالة الصدر تساقط المشموم رطباً فوق السجادة . انحنيت . جمعته بحنان . سحبت

الشماغ من حول عنقي . فركته بالمشموم حتى تعطر . ارتديت قميص نومي الشفاف دسست الشريط الذي أهداه لي في ثغر آلة التسجيل . انطلقت الموسيقى . صراخ . ريح . زمجرة موج . تأوهات عذارى . واشتعلت شهرزاد . أمسكت بالشماغ . فردته أمامي صار شهريار . صارت له ذراعان . عنق . وجه . وابتسامة . دعوته للرقص . حضن كتفي . حضنت كتفه . شددته إلى صدري . شدني إلى صدره . أرحت خدي على خده . سرى الدفء رقراقاً . قرب شفتيه المبللتين بالوله من شحمة أذني . لعقها . همس :

ـ آه يا شهرزاد . لو أسمع حكاية!

أبعدت وجهي . حدقت إلى عينيه اللامعتين . ألسنة النار تشتعل ضغطت على شفتيه بإصبع كالجمرة . همست :

ـ أيها الأهبل . الليلة تموت كل الحكايات . شهرزاد الليلة تريد أن ترقص .

١٩٩٥

الليلة تسبح شهرزاد

دائماً . كنت أنت الذي يصدر الأمر :

«قُصّي الحكاية» .

ودائماً . كنتُ أنا الدمية الجميلة تجلس بوقار مصطنع على طرف السرير عند أعتاب قدميك المشبعتين بعطور العز والرخاء .

ألف ليلة مرت .لم أعرف ليونة النوم ولا شهية الحلم . أظل بارتعادي أبحث عن رأس حكاية جديدة لأسحرك بأجواء الحكايات . وأحمي عنقي لحظة صياح الديك من سيفك البتار .

الليلة . ستكون الليلة الأخيرة . سأتمرد عليك بعد أن كرهت خضوعي وكل الحكايات . ولأن الموت قادم إليَّ . فإنني أشتهي أن أموت بغير سيفك . مزهوة أنني حققت لنفسي ولو مرة واحدة حلماً بديعاً .

في هذا الليل المتلألىء . أريد أن أكسر قوانين الحكايات . أن أتحرر من قيودي . أزف جسدي إلى البحر مولودة شهية مبللة بأنفاس أمي ودماء رحمها الدافىء ، مشحونة بالصرخة الأولى لأطلقها من العمق . إلى العمق .

أريد الليلة أن أسبح ، أن تتنفس كل شعرة بجسدي دهنها ، عرقها ، حناءها ، صبرها ، عذابها . سأغوص تحت الماء سمكة ، بلا اسم ، بلا جنسية ، بلا انتماء . أريدني الليلة شهرزاد أخرى تولد من ظلمة قصرك إلى فجر الموجات ، وحضن القاع .

هذه الليلة أهديها للبحر . فكم حسرتُ شوقي وكتمت جوعي إليه . أريد الليلة أن أذوب في اللجين وأتبعثر بين أسنان الزبد الضاحكة . وجه أمي قادماً من عالمها الآخر يفاجئني ملوناً بحزن سنوات صباها الأول التي سرق منها البحر أجمل أحلامها وظلت تحذّرني :

« إياك والبحر . إنه غدار يسحرك ثم يقهرك » .

حكاية أمي القديمة حرمتني من البحر . ظللت أعشقه عن بعد ، ولا أجرؤ أهديه حتى أطراف قدمي .

لكنه الليلة يناديني . يهاتفني سحره ، وموسيقاه العذبة تحنو على روحي توقظ كل أبواق الصمت تصرخ : « تحرري » . وصدى صوت أمي يصرخ راعشاً ، ناضحاً بكراهيته للبحر :

« إياك . إنه واضح وجميل . لكنه في العمق غامض وأثيم » .

أصد صوتها ، وجهها ، أرفض الاستسلام لتلك اللعبة التي استسلمت لها أمي . كان أبي يأمر فتطيع . ينهى فتجفل حانية رأسها بلا حول ولا قوة . حتى جفت عروق فؤادها ، دماء شفتيها ، جنائن وجهها . فهل أجف بانتظار أن تأتي معجزة ويرحل هذا الشهريار ؟ ؟

تفرست في وجهه المبتسم انتصاراً كعادته قبل بدء الحكاية ، مسترخياً على وسائده الوثيرة . يداعب ذقنه ، يلحس لعاب شفتيه مثل قط يتلمظ طعم

وجبته الأخيرة بعد أن تجشأ . يسلط نظرته الثاقبة نحو شفتي يستحثهما أن تبدأا .

أشحت بنظرتي التي تمنيت لو تشق بؤبؤ عينيه . نهضت . تركت مكاني ، هرعت إلى النافذة بكل قوتي . كسرت زجاجها الملوّن ، قفزت باتجاه البحر ، تاركة الدهشة كالنار في عيني الشهريار المستلذ براحته . خلعت حذائي المرصع بقيود الذهب . أسقطت قدمي على الرمل الشهي بلون العسل . شممت فيه رائحة امتزاج الأقدام بالحب ، بآهات الصدور ، برعشات الصبايا ، بحلم أمي القديم الذي تمدّد عليه مودعاً الحياة .

تسربت البرودة إليَّ . انتعشت ، حثثت خطاي . واجهت البحر وكأني أواجه المجهول .

ها هو أمامي . وديعاً . هادئاً ، وكأن كائناته قد أسبلت جفونها واستسلمت للرقاد اللذيذ لتتركه لي وحدي أعوّض سنوات الخوف والقطيعة ، خالعة أقراط التحذير التي علّقتها أمي بأذني .

دنوت . غمست قدمي . فوجئت بالماء شديد الدفء . أغراني لأهديه نفسي . نزعت كل أرديتي . بدأت أسقط جسدي رويداً ، رويداً ، اندسست في خلاياه . تثنيت . تعرجت بقدميَّ فوق حجارته الصغيرة . أحسست متعة لم أتذوقها في عمري . تراخيت في غدائر الحب المجيد . همست له :

« أرجوك . لا تكن غداراً . امنحني الرأفة والحنان » .

أتربع بقلبه . أبدأ أغتسل من كل الحكايات الألف . من دبق الشهريار الذي تركته يغط في انتظاره ، وغيظه . الآن فقط ، أشعر أنه لم يكن للعمر معنى . ولن تكون له قيمة باستمرار السيادة للسيف وللجلاد . سأنزع جذور الحكايات ، أنثرها لتأنس بها الجنيات والأسماك . الليلة أريد البحر يسرد لي حكاياه . يمنحني الميلاد الأزرق .

وحدي ، بين الماء والسماء ، سمكة بلا قيود . قلبي المشققة أعماقه من الجفاف ، جسدي الظامىء ، يرتويان . يرفعني الماء وينحدر بي رؤوفاً . يرجرجني بحنان . يعريني . يغطيني . يدحرجني ثم يعيدني . يثلجني . ويدفئني . اكتشفت الليلة أن البحر سرير من حرير . والموج وسائد من ريش ، والأصداف أحلام متناثرة . تركت لوسائد الماء أن تداعبني أناملها . تركت موجة مهذبة تهدي لصدري فضتها وعطرها ، ولأخرى تتخلل ساقيّ تصفعهما برفق وترتد غارسة ألف زهرة ، ولموجة شبقة تعابث بألسنتها أقحوان جسدي فتوقظ فيه السكون وتثير الانتشاء . أمتص الملح . أرتفع نحو سماوات الدهشة والرعشة . أعاتب أمي أنها حرمتني هذا العناق العجيب . أزداد التصاقاً بالماء . وعيناي تتسلقان المسافة نحو السماء . القمر يشع من العلياء يهدي ضياءه غلالة شفافة تتراقص فوق الموجات الهادئة . أهديه قبلة... قبلتين . أدعوه :

« إنحدر إليّ . أشتهيك الليلة تسبح معي » .

هَمْسُ الموج اللذيذ يلتقط دعوتي وصوت شهريار يقتحم اللحظة يفسدها :

« امنحيني جسدك مرة في عمق الماء » .

كم مرة صددت دعوته :

« كيف آمن على روحي مع اثنين! أنت والبحر كلاكما غدار » .

لكن رغبته ظلت محتشدة في صدره لا تنهزم . يزفها كلما تَجوَّلَ بي على الشاطىء ويؤكد أنه ذات يوم سينالني في الماء رغماً عني .

طردت صوته ، صورته . توسلت إلى القمر أن ينحدر . يمنحني ليلة واحدة أعيشها أميرة للحب . ثم أموت .

مددت ذراعيّ نحوه . أريد أن أشق ثوبه . أفك أزرار قمصانه المتراكمة . أعابث شعر صدره ، أصب بين تفاحتيه عصير برتقال ، أرش زعتراً . نعناعاً وأمتصه مشبعاً بعرقه .

تبدى لي القمر رجلاً ساحراً . مثل برق شق بيداء السماء . انزلق نحوي عارياً . لفحتني رائحته الشهية . أشرع لي صدراً كالنار فألصقت به ثلج صدري . ارتعشت . قبض على شفتيّ المحرومتين يهطل فيهما خمرة ثغره . شربت . ارتويت . أخذت كفه تسافر في غابات جسدي تنبش أعشاش العصافير وقلوب الزهيرات الغافية . أثارتني مداعباته فانطويت في ضوء ساقية تاركة سيوفه الحارقة تلج رخامات جسدي ، تستعر بي الرغبات المكبوتة . أشهق . تتصاعد شهقاتي . تبعثرها الموجات زغاريدَ غناء يقطع بهجته صوت أمي يدين لحظة عشقي . يرجم ذنبي . أصرخ : « كل المدينة مذنبة . لكن ذنوبها السرية مغفورة . لن تكون ليلة عشقي الأولى بين أستار الظلام . إنه القمر . وأنا التي جئت أهديه والبحر جسدي ، روحي ، وحريتي » .

ألف سوط صار لصوت أمي .كل المدينة أطلقت صراخها حولي . اصطخب البحر . فار الزبد . انخلعت الأعشاب من معاقلها واعتلت رؤوس الموجات . تحولت ضفائر من الحبال الغليظة أحاطتني بدائرة متسعة ثم أخذت تضيق . وتضيق لتصطادني . صوت أمي يخترق المسافات البعيدة يأمرني : « اخرجي . سيغدر بك البحر » .

لا أبالي بالنداءات . أرتمي برأسي على كتف القمر . أترك جسدي ينحدر إلى العمق وقد تلاشى لديّ ذلك الاطمئنان الذي داخلني في لحظة ما أنني سأجيد السباحة . لا يساورني شعور بالهلع . أتمسك بأذرع البحر تشدني هاربة بي نحو العمق . أغوص ، لا يتبقى سوى رأسي . عيناي

تحدقان بنظراتهما الأخيرة إلى الشاطىء . قصر شهريار ما يزال مضاء . ما يزال بانتظاري كي أقص له حكاية جديدة .

١٩٩٥

آلام رأس الملكة

www.mlazna.com-RAYAHEEN

ما زالت المطارق تعمل دون انقطاع . أشك أن هذا رأسي . تحول إلى ورشة حدادة . أو سوق « صفافير » . فعلت كل ما أمكنني للتخلص من الألم . استخدمت المراهم ، الأعشاب ، وحبوب البنادول . واستخدمت طريقة جدتي في ربط عصابة على الرأس . لكنني فشلت ، فقررت مراجعة الطبيب . لكن الأسابيع مرت ثقيلة . لم يثمر الدواء . رفعت سماعة الهاتف واتصلت به :

قال : « وصفت لك أقوى علاج . لكن يبدو أن متاعبك أقوى منه » . ابتلعت رده المجرد من الحنان . تكومت على الأريكة محاصرة بغيظي ؛ وآلام رأسي ؛ وتلك المتاعب التي لم أفصح عنها رغم تواتر أسئلته وهو يتفقد غدة عنقي ، قاع عيني ، وحركة أطرافي بمطرقته الصغيرة .

ماذا كنت سأقول له ؟ كل شيء بات مزعجاً . أحوال الدنيا كلها لا تسرّ ؛ حروب ؛ زلازل ، أوبئة . رائحة موت متعددة الأشكال . أحوال البلاد هي الأخرى لا تسر . الفساد ، الجشع ، الفوضى ، معاناة يومية جعلتنا نكفر بالقوانين والمسؤولين . وزملاء العمل الذين يرتخون كذباب على الكراسي ، ويحاربون من ينزف دمه وعرقه ويختار لنفسه موقعاً بين السحاب .

www.mlazna.com-RAYAHEEN

هل كنت سأحدثه عن تلك الثعابين التي تسلط عدوانها الوحشي لتقذف ثماري بالحجارة والسموم ؟ أم عن الحب الذي يحاصرونه بالسهام ، والدسائس ؟

قاومت كسلي . أسلمت جسدي لدش الماء البارد ، اندسست في الفراش ، تناولت حبتين من العلاج بدل الواحدة . هويت برأسي المتعب على وسادتي . حضنت وجه حبيبي . أسدلت عليه رموشي . قررت أن أنام مبكرة لأرتاح من مطارق رأسي .

طرقات على باب غرفتي ؛ معزوفة لا تجهلها روحي . هل يعقل أن يفاجئني الليلة بالزيارة ؟ نشوى ؛ سابحة في الخيال تحركت . فتحت الباب . انتشر عطر رجولته يبلل اندهاشات وجهي . أشرع ذراعيه جناحين يتسعان لعمري . ارتميت عليه غير مصدقة :

ـ كيف خطر لك أن تأتي ؟

ـ عندي هدية رائعة لك .

تسرب الغضب إلى صوتي :

ـ طلبت منك أن تكف عن هذه العادة .

ابتسم بعذوبة :

ـ أنت امرأة غريبة . عرفت نساء كثيرات يصل عشقهن للهدايا حد الابتزاز . وأنت!!

ـ زيارتك لي أجمل الهدايا .

هرس أنفي الذي يعشقه بين إصبعيه كما يفعل دائماً :

ـ هدية الليلة شيء مختلف . تعالي .

أجلسني أمام المرآة . أمرني برفق :

ـ أغمضي عينيك . لا تفتحيهما قبل أن أدعوك لذلك .

ـ لا أستطيع أن أغمض عيني دقيقة واحدة وأنت معي .

رجاني :

ـ هذه المرة فقط .

كان الرجاء حنوناً . أشبعت عينيّ منه قبل أن أطبقهما .

كفاه تتقافزان على رأسي . تهدأان . ثم :

ـ انظري الآن

بهرني المنظر . شهقت :

ـ تاج ؟ ؟

ترقرقت كلماته بالصدق :

ـ وهل غيرك ملكة تستحق التاج ؟

ـ كم كلفك هذا ؟

ـ أرجوك . لا تحاسبيني . لهذا التاج مفعول السحر .

ـ ولكن!!

صب حنان عينيه في عمق عينيّ . احتضن كتفيّ . تأملني في المرآة :

ـ هذا التاج يجب أن لا يغادر رأسك أبداً . نامي . تحركي . استحمي . اركضي . اخرجي . لكن إياك أن تنزعيه عن رأس الملكة .

قهقهت :

ـ تريد الناس يقولون عني مجنونة!

جاداً وواثقاً قال :

ـ هذا التاج لا يراه إلا أنا . وأنت!

لمح دهشة الشك في وجهي . أكد :

ـ صدقيني . هذا تاج سحري يقيك شر الناس والمرض .

رفعني عن المقعد . ضغط على كفَّيَّ :

ـ هيا لنخرج الآن .

ـ هل أنت مجنون ؟

ـ منذ عرفتك بدأت أمارس الجنون . تعالَيْ . الجو جميل هذه الليلة يستحقه عاشقان مثلنا .

تزاحمت في صدري ضربات الفرح . لا أدري كيف اندلق جسدانا . من النافذة أم من الباب . كأن أجنحة حملتنا . رأفت بنا حتى وصولنا إلى شارع غريب ، لا أبنية ، لا أضواء ليس سوى أصوات الليل ترن . تتسع . تصفو مثل حليب طازج ينسكب على العالم . الأرض مهجة حانية . مفروشة بطين أحمر ناعم لا تسمع فيه وقع خطوة . وعلى الجانبين تصطف أشجار نخيل باسقة بكبريائها نحو السماء . وكلما اقتربنا من نخلة انحدرت نحو الأرض ليصبح ثمرها في متناول اليد :

همست وأنا أهرس نفسي على جسده :

ـ ما أجمل ابتعادنا عن شرور النهار .

ـ نحن الآن في الجنة . فلتتذوقي ثمرها .

قطف بلحة ناضجة . دستها أنامله في ثغري . قبل أن أقضمها :

ـ وأنت! ألن تأكل ؟ ؟

بحب شهي أجاب :

ـ لا يستحق هذه الثمرة إلا ثغر الملكة .

داعبته :

ـ ألا يستحق ثغر الملكة غير هذه الثمرة ؟

تقافزت من ثغره النجوم . فاح عطر الدارسين . انثال على شفتيَّ رشف عصير البلح . رشفت عصير شفتيه .

زودتنا نشوة القبلة بالقوة . انتظمت خطواتنا ، سابحة ، طائرة طروباً ، راقصة على أصوات الليل الحريرية . لم نتوقف إلا حين غلفت الطريق عتمة مفاجئة . أحس بارتعاشي . همس :

ـ لا تفزعي . المسي التاج .

قبل أن أستفسر كانت كفه ترفع كفي لتلامس بطرف إصبعي ماسة تتوسط التاج .

لمسة رقيقة وانفضت العتمة كما يفض الصبح بكارة الوردة . صوته جاءني شارحاً :

ـ وبلمسةٍ أخرى . يرحل الضوء . هكذا تكونين الملكة القادرة على التحكم في ولادة الضوء وموته .

ـ شيء عجيب .

مؤكداً بثقة :

ـ سترين الأعجب .

أسدلت رأسي على كتفه . احتضن خصري برقة . توقف ليقطف بلحة أخرى . قلب العذق . اختار واحدة بلون العسل . ألقمها ثغره وأطبقه على ثغري . امتصصت الثمرة المعطرة ، ضحكت منتشية :

ـ هكذا . بلحة وقبلة في وقت واحد .

قرص شفتي :

ـ حتى تتأكدي أنني لا أنسى ثغر الملكة .

انغلق الطريق أمامنا . تشبثت به مرتجفة . أطلقت صرخة أشبه بالآهة . صوته يحثني :

ـ المسي التاج بسرعة .

ما كدت ألمسه حتى انفتح الطريق أمامنا . أضواء تتلألأ . أرض كالبساط ، عشب أخضر مدهونة رؤوسه بالندى . أزهار بنفسجية غريبة التكوين . نباتات كالشموع تتمايل محلاة رؤوسها بالتيجان . بحيرة تتوسط البساط رقراقة تتموج نشوى بألوان قوس قزح . انفرطت حماستي أمام الجمال المذهل . شددته :

ـ تعال نسبح .

تردد :

ـ الهواء بارد . لعل الماء كذلك .

أشرت إلى رأسي بغرور :

ـ لمسة من التاج . ويدفأ .

اشترط مداعباً :

ـ ستنزعين ثيابك أمامي .

تنبهت لانتصاره . تخلصت بلباقة :

ـ أشهى أن نغوص بملابسنا .

صوته مفعماً باليأس ، وبالعتاب :

ـ لا أدري متى تتحررين من خجلك . كل النساء اللآتي عرفت لسن مثلك . قبل أن أخلع حذائي لأجلس تكون الواحدة قد تعرّت .

حدقت إلى عينيه . داعبت شفتيه بسبابتي وإبهامي :

ـ نساء لا يعرفن الحب .

هرس رأسي في صدره . هرسه بقوة كمن يخشى أن يفلت منه وأفلت . تدفق همسه كقصيدة :

ـ ليس مثلك امرأة تعرف كيف تعطي الحب ، أحب حنانك ، حياءك ، انتشاءك وأنت في خيمة الثياب وخيمة جسدي . أنت حبي العظيم .

كم مضى من الوقت قبل أن نفك التحامنا ثم نتسابق نحو البحيرة ، نتراشق بمائها العذب ، نشرب منه . تتبادل شفتانا الأنخاب . ونقرر أن نرتمي في ابتسامة الألوان .

في اللحظة التي أسقطنا أقدامنا . تفجر قلب البحيرة كالبركان . انطلق منه ثعبان ضخم ، فاغراً شدقه العجيب . النار تنطلق منه متوحشة متفرعة إلى ألسن تقذف سماً ، تزفر باتجاهنا ريحاً سوداء . داهمتنا عاصفة الخوف . بددت غمرة نشوتنا فانطلقنا كعصفورين مبللين نبتت لهما آلاف الأجنحة . صوته واضح رغم صوت الريح المفزع : «المسي التاج» . في لمحة بصر .

www.mlazna.com-RAYAHEEN

كنا نتلاصق في قلب شجرة ضخمة . أوراقها الكثيفة ندية كوجنات طفل . رائحتها كصدر أم يدر حليبه لأول مرة . أحاط بنا أمان عجيب . واسترسلت عينانا ترقب الثعبان الذي استقر أسفل الشجرة عاجزاً عن التسلق أو القفز رغم كل محاولاته والتواءاته . بارتجاف تحرك لساني وقد حسبته تخشب :

ـ شرور الليل أيضاً تلاحقنا .

صوته بهدوء شديد :

ـ اقذفي بماسة من التاج إلى حلقه .

تحسست رأسي غير مصدقة أن التاج ما زال متشبثاً به رغم الهرولة والطيران . اقتطفت ماسة . حددت وجهتها جيداً باتجاه الفم المفتوح . أسقطتها فيه . دفنت وجهي في صدره وقد انكمش قلبي خشية مما قد يحدث .

كفه تنبهني :

ـ انظري .

المنظر عجيب . تحول الثعبان إلى حبل من النار . تلوى على نفسه حتى تقزم تماماً وسقط ذائباً على الأرض . خمد كتلة من الرماد . لا دخان لا رائحة حريق . ظل الليل صافياً والسماء بهيجة . غمرنا دبيب الفرح . انحدرنا من الشجرة بسهولة وليونة . وكأننا ننزلق من بوق وردي أملس . تفقدني بحنان . ومثل أم تتفقد سلامة طفلها بعد الغرق لامست وجهه . جسده . أصابع قدميه . لم أتوقف إلا حين عطّر سمعي :

ـ أنا بخير .

اطمئني .ابتعدت عنه خطوات . فزع قاطعاً خطواتي :

ـ ماذا تنوين ؟

بإصرار :

ـ سأبحث عن الماسة بين الرماد

أبحرت عيناه نحو رأسي . تهلل وجهه الجميل :

ـ الماسة موجودة .

لم أصدق . تفقدت التاج أبحث عن ثقب الماسة المخلوعة . تأكدت أن لا شيء نقص . نظرت إليه أشكر هديته العجيبة . نظر إلى الرماد . ندت عنه شهقة :

ـ ما هذا ؟ ؟

نظرت إلى الرماد الذي أزهر أوراقاً ملونة . تشجعنا . دنونا . استللنا الأوراق بحذر واحدة بعد الأخرى . نفتحها . نقرأ : أمثال حكم ، أمنيات . طرائف . مقاطع من قصائد عشق . بقيت ورقة منطوية كزهرة خجول . تجادلنا من يفتحها . سمح لي وعيناه تترقبان ، شربت الكلمات من لسانه نحو أذني :

«أنت الملكة المنتصرة على كل الشرور» .

برقت الفرحة في عينيَّ . سؤاله يؤكد :

ـ هل صدقت الآن ؟

بدلال حمل مغزاه :

ـ المهم أكون ملكة قلبك .

بصدق تقاطر ندياً :

ـ لقد استحوذت على العرش كله .

غردت الكلمة في شراييني . رقصت في معطف قلبي . نداؤه يغريني :

ـ تعالي ننم .

تحول الرماد سريراً لنا . استلقينا عليه دافئين . أزحت جسدي قليلاً لأوسع له . شدّني . صوته شجي كالنّاي :

ـ لا تبتعدي . الليلة أنت لي .

ـ وكل ليلة . روحي لك جنة . جسدي لك بحر .

لمست التاج . حررتني اللمسة من كل ثيابي . تسكعت نظراته الوالهة على التفاصيل المضيئة . تلمست كفاه دروب الجنة والنار . أمطرت سماؤه . أنعشت الزنابق . التين والزيتون . تفاح الجنان . كرز الحدائق مزارع البن الأصيل . ذبت . تمنيت أن أبقى هكذا حتى ما بعد الصحو والأحلام . أنامله فوق التاج . شفته في مغارة سمعي تحذرني بحنان :

ـ إياك أن تنزعيه . وكلما احتجت إليَّ اطرقي عليه هكذا... تك... تك... دقات الباب تتواصل . فرّ النوم فزعاً . وحدي في الفراش الثلجي . رائحة جسدي ، حريق . رائحة وسادتي رماد . قفزت من السرير إلى المرآة ، شعري منسدل . غرتي تكاد تدفن كل جبيني . لا شيء فوق رأسي ولا داخله . أين ذلك الألم العاصي وطرقات المطارق ؟ أين التاج! التاج! درت كالمجنونة . أنكش الفراش ، الأثاث ، الأدراج . لم أعثر على شيء . تزحلقت إلى الأرض أنتحب غير عابئة بالطرقات المتوالية على الباب . صوت يشع في جسدي . ذبذبات حكايا . قصائد . يدس همسه الوديع : «التاج على رأس الملكة» . حركني نشاط مفاجيء نحو الباب . وجه أختي وصوتها الخائف :

ـ طرقت كثيراً . ما هذا النوم البليد ؟ أردفت قبل أن أجيب : ما أجمل شعرك اليوم . كيف آلام رأسك ؟ ؟

نظرت إلى الهاتف . اتصلت بالطبيب . بادرته معلنة عن نفسي . ألقيت عليه قراري :

ـ سأرد لك كل الأدوية . لم أعد بحاجة للعلاج .

١٩٩٥

www.mlazna.com
^RAYAHEEN^

يحدث كل ليلة

ظل الذي يحدث كل ليلة يثقلّ على صدري ، يعكر حياتي ، قلت لنفسي : لا بأس أن يشاركني أحد هذا الحمل . ولربما وجدت له حلاً . ترددت كثيراً لكنني جرؤت أخيراً حين التقيت بمجموعة من زملاء العمل في المقهى البحري نحتسي الشاي ، نشرب «الأرجيلة» .

كنت كعادتي منذ أن بدأ يحدث لي ما يحدث كثير السهوم ، معتمراً كآبتي أينما ذهبت . كانت فرصتي حين علّق أحدهم :

ـ أنت تغيرت . لم تعد ذلك الضاحك المتجلّي!!

تنحنحت ، سحبت نفساً من الدخان . وأطلقت آهاً طويلة قبل أن أقول :

ـ واللّه «يا جماعة الخير» عندي مشكلة تنغص عليَّ عيشتي .

تبارت الأصوات بين اندهاش وفضول ومشاعر خوف : خير إن شاء اللّه ، و : يا أخي فضفض عن صدرك . و : معقول تكون في مشكلة ولا نساعدك ؟ ها . تفضل قُل .

أسرني اهتمامهم . حكيت لهم القصة . انفلتوا جميعهم بالضحك حتى

www.mlazna.com-RAYAHEEN

كاد أحدهم يشرق بالشاي ، وارتجّ آخر في كرسيه . أوشك يقع لولا تدارك يد الجالس على يمينه . في داخلي شعرت بالندم . فقد اشتممت رائحة استهزاء وشك في قُواي العقلية . ها قد صرت أضحوكة لهم . لمحوا انقباضي . تراشقوا النظرات فيما بينهم كما لو كانوا يلومون أنفسهم . قلت :

ـ كان لي الحق أن أتردد فلا أطلعكم على سري . لكن! ها قد غلطت .

انهالت اعتذاراتهم :

ـ يا أخي الحكاية مضحكة . لكن هذا لا يعني أننا لا نأسى لأجلك ونشاطرك همّك .

قال آخر :

على كل حال . لديَّ حل لمشكلتك . حتى تنام نومة عميقة فلا تشعر بأحلامك .

ـ تفضل . أتحفني بما لديك .

اعتدل . مجَّ نفساً . شفط جرعة من الشاي :

ـ شوف . افتح أنبوبة الغاز واستنشق الرائحة . تدوخ وتنام كالمسطول . عندما لمح استياني من اقتراحه الشرير أبدى جديّة شديدة ، وأكمل :

ـ صدقني . هذا ما فعلته خادمة فلبينية بأطفال مخدوميها . شياطين يتعبون أمهم وقت النوم . وحين سلمتها مسؤوليتهم لتخرج مع أبيهم للسهر . ضاقت بهم الخادمة . وأخذت تنشّقهم الرائحة . الأم لاحظت انضباط نومهم في ساعة معينة . شكّت في الأمر . لبدت ذات ليلة وفاجأت الخادمة في المطبخ تمارس فعلتها الشنيعة على الأطفال .

فجعتني الحكاية . وحين لمح استغرابي أضاف لمعلوماتي ـ التي رآها ضحلة ـ حكايات أخرى اقشعر لها بدني . وحزنت على أطفالنا الضائعين في أيدي الخدم . لكني رفضت الفكرة! ما يدريني لو أنني استنشقت أكثر من حاجتي وفقدت حياتي ؟

استمعت لكثير من الاقتراحات التي تحاذفت ، بعضها جربته لمعقوليته . بينما أهملت مجرد التفكير بالبعض الآخر . أكد لي أحدهم أن بعض أنواع الوسائد غير مريحة ، وسادة القطن مثلاً تتلبّد مع الرطوبة . تصير تحت الرأس كالأرض الوعرة ، وسادة الريش تسبب الحساسية . امتدح وسادة الديباج . جربتها . لكن الحال ظل كما هو . فقررت أن أستغني عن الوسائد . ولم أنج مع ذلك مما يحدث .

أشار عليّ أحدهم بحبة مهدىء . بدأت بواحدة . تطور الأمر لاثنتين . وحين تعدّت الحاجة لثلاث وأربع ، توقفت خشية أن ينتهي بي الأمر إلى الإدمان ، خاصة وأنها لم تمنع الذي يحدث .

اقترح آخر : عليك بالقراءة إنها تمتعك وفي الوقت نفسه مثيرة للنعاس .

قلت :

ـ القراءة هوايتي المحببة . أنا أقرض الكتب مثل الفأر .

وذكرت لهم ألوان الكتب التي أقرأها . صرخ أحدهم وكأنه وقع على حل للّغز العجيب :

ـ تلك هي مصيبتك . ما دمت تقرأ هذه الكتب . فما تحمله من أفكار تشوش حياتك وتفسد راحتك . أبحث عن كتب أكثر متعة .

قلت أجرب . كومت العديد من القصص العاطفية الساذجة . كتب المذكرات . قرأت مذكرات الراقصات فأشفقت عليهن وحقدت على بعضهن . قرأت مذكرات الفنانين الكبار .

أعجبتني حياة ليلى مراد وفريد الأطرش وعبد الوهاب .

تراكمت لديَّ كتب عجيبة وغريبة مثل كتاب «نكت من تحت الدست» ،«كيف تصبح مليونيراً» و«كيف تروّض زوجتك» و..... كلها قرأتها . ومع ذلك ظل الذي يحدث . فعدت لكتبي الأساسية ذات الأفكار التي لا تعجب زميلي .

لجأت لاقتراح تبرّع به أحد النّهمين :

- «طيعني» املأ بطنك بأكلة دسمة . أتبعها بثلاثة أكواب من اللبن المخيض ، ستنام كالقتيل .

النتيجة كانت بائسة . حين اتصل بي مستفسراً عن نتائج وصفته . لعنته مؤكداً أنها قلبت كيان أمعائي ونقلتني إلى المستشفى . أحسسته من وراء الهاتف يلوي شفته هازئاً . متهماً إياي بالجنون .

من حيث الجنون . لست مجنوناً بشهادة أكثر من طبيب متخصص . كلهم أكدوا سلامتي ولكنهم أجمعوا أن لا شيء سينقذني من هذه الحالة إلاّ الزواج!

آخ! المرأة! وما أدراك ما المرأة! هلعت من الفكرة . أي فائدة يتصور الأطباء أنني سأجنيها من الزواج ؟ وهل حقاً سيكون منقذي مما يحدث ؟

أنا شخصياً لا أحبذ الزواج . أصدقائي ، وبعض أقاربي جعلوني أكره هذه المؤسسة ، فكلما اقتربت من بيوتهم واكتشفت مصائبهم حمدت الله

أنني - العاقل الوحيد بينهم - هل أنا أهبل لأقبل أن تأتي امرأة وتتحكم بمصيري! تفرض عليَّ شكل ملابسي . وطريقة نومي «كي لا أزعجها بشخيري» . وتلاحقني بتنبيهاتها العديدة وتحدد لي مواعيد عودتي ، تتدخل في اختيار أصدقائي . وقد تسد الباب في وجه من لا يعجبها منهم . ربما تفرض عليّ حتى نوع السجائر التي أدخنها .

وأنا لا أحتمل أن تصرخ في وجهي كل مرة لتذكرني بخلع حذائي عند عتبة الباب حتى لا ألوث السجادة «رغم أنني أنا الذي سأشتري السجاجيد وكل أثاث البيت» .

لا!

البعد عن النساء غنيمة . مالي أنا وثرثرتهن ، ودموعهن التمساحية ؟ حتى حنانهن أشك أنه صادق . إنه مجرد طعم ليقبل الرجل بكل الشروط ثم بعد أن يقع في الفخ تدوس على عواطفه . وأحاسيسه . لذا استبعدت الفكرة من أساسها .

فكرت :

إن كان ما يحدث مجرد حلم! فلا بد أن يكون له تفسير . وبدأ هم جديد . تنقلت بين المكتبات باحثاً عن كتب تفاسير الأحلام . وحين لم أجد لحلمي أي تفسير - ربما لغرابته - أحرقت كل الكتب التي أحرقتْ بها أعصابي .

قالت لي إحدى الزميلات في العمل - وقد سرب لها أحدهم سرّي - إن حالتي هذه سببها «الكبت الجنسي» . حقدت عليها . ما أوقح النساء! كيف لم يجرؤ رجل أن يقول هذا وجرؤت هي! هل تقصد أن تلفت نظري لأتزوجها ؟ لم أرد عليها . فأنا لا أعاني مما تتصوره . صحيح أنني أعيش في مجتمع مكبوت! لكن هناك وسائل للراحة يمارسها العزاب أمثالي .

عاتبت الزميل الذي أفشى سري اعتذر وقال :

ـ لا تستهزىء برأيها . ربما لديك «عقدة جنسية» ونصحني أن أعود بذاكرتي إلى سنوات عمري الأولى ، وأيام الشباب .

دخلت متاهةً أخرى . أخذت أقضي الساعات راجعاً بذاكرتي إلى الطفولة . تذكرت أننا صبيان الحي مارسنا أنواعاً من الشقاوات . لكنني لا أذكر أن أحداً جرح براءتي حتى حين راودني ذات يوم أحد الصبيان الملاعين .

يومها حصرني تحت «عريش بيتهم» ليرغمني على مشاهدته مع ـ عنزتهم ـ الصغيرة محاولاً استثارة حواسي لأرضخ له . لكن العذاب الذي عانته العنزة صرفني عن كل شيء . تقيأت . فررت لأمي . وشيت به لها . وبعد أيام عرفت أن أباه كواه في عورته ليؤدبه .

تدرجت بالتذكر لأيام الصبا والشباب الغض . فلم ينتصب أمامي إلاّ وجه وضحة الطيب البريء الذي كنت ألمحه من شق النافذة . وأحلم به طوال الليل حتى تزوجت فشعرت أن حلمي انكسر . ورفضت البحث عن حلم جديد .

ما عدا تلك الذكرى لم تكن لديَّ تجارب عملية . كانت شهوتي العارمة للقراءة تحميني من خدش الحلم بالاقتراب منه . اختصرت علاقتي ببعض الشباب عشاق القراءة مثلي . بعضهم كان يسافر ويأتي بالكتب الجديدة والغريبة . فنقرأ ، نتناقش ، نبحث عن أي شيء يضيف لعقولنا . تشكلت بعد ذلك مجموعتنا التي انتمت لفكر واحد .

هذا الارتداد للزمن الماضي أكد أن لا شيء في حياتي يجعلني أخجل

منه . وأنني لم آتِ فِعلاً فاحشاً أو مخالفاً للقانون أستحق هذا العقاب الذي يحدث .

ذات ليلة . كنت في ضيافة صديق . ضمت الجلسة مجموعة غير متناسقة من الرجال والنساء . في تلك الليلة لفتت نظري امرأة ـ رغم سمنتها وقصر شعرها ـ كانت تقرأ طالع إحداهن في فنجان القهوة . الأمر لا يعدو كونه «تسلية نسائية» .

لكن اندهاش المرأة التي تسمع وترديدها كلمة ـ صَحْ ـ جعلني أندفع للمرأة . أقدم لها فنجاني بعد أن قلبته وجف قلبه . ضحكت . لم تتأخر أن تسخر مني :

ـ مثقف مثلك . يؤمن بالفنجان ؟

دافعت عن نفسي :

ـ أبداً . مجرد فضول لاكتشف قدراتك .

امتعضت . فرشوتها بابتسامة . تأملت فنجاني . تغيرت سحنتها . نظرت إليَّ نافرة متعوّذة :

ـ أنت مسكون .

بدهشة لا تتناسب وثقافتي :

ـ مسكون بماذا ؟ ؟

بحلقت بوجهي فغابت جاذبيتها :

ـ بالشياطين .

هزئت في سري . لكن لم يمنعني أن أسألها لأشعرها بأهميتها :

ـ وكيف أتخلص من شياطيني إن شاء الله ؟

قالت بثقة من يملك الحل :

غيّر سكنك .

عقدت ما بين حاجبيّ استياءً . أكملت :

ـ أدواتك . أثاثك . وإن استطعت غيّر بعض أفكارك .

عدت إلى بيتي . تجولت فيه . بحثت عمّا يوحي بأنه المسبب لما يحدث . هل هي الفوضى ؟ هل هو التراب المتراكم فوق الخزائن والرفوف ؟ هل هو الأثاث القديم الذي اشتريته بسعر معقول من سوق ـ بين المقبرتين ـ ؟

الغريب أن كلامها ، الذي سخرت منه ، أقلقني . لعنتها . ولعنت الفنجان . ويوماً بعد يوم سيطرت عليّ فكرة التغيير . هربت لسكن آخر دون أن أحمل شيئاً من أغراضي . لكنني لم أستطع إلاّ أن أحمل كتبي وأفكاري معي .

حين استلقيت على فراشي الجديد في الليلة الأولى . قهقهت سعيداً على اعتبار أن الكائنات لن تعرف عنواني الجديد . ثم حتى لو عرفته . فإنها لن تستطيع الصعود إلى الطابق الخامس ـ تعمدت اختيار دورٍ عليّ متوهماً أنه سيحميني ـ لكن فرحي خاب . حدث الذي يحدث كل ليلة . مما جعلني أستعيد ما قالته المرأة بأنني مسكون بالشياطين .

قررت الذهاب إليها ـ وأنا آسف لأجل نفسي التي وصل بها الأمر لهذا الحد .

طرقت بابها في ظهيرة حارة رغم تنبيه الصديق الذي أعطاني عنوانها : «يا رجل هذه امرأة سخيفة . يتسلى الناس بهبلها» .

حين فتحت لي الباب ابتسمت بمكر . ربما تصورتني أرغب فيها . مشت تسبقني بخطواتها . كانت خفيفة الحركة رغم سمنتها . دققت بتفاصيلها . نفرتُ حين تخيلتني أمارس الحب مع امرأة تشبه «السرير الهزّاز» .

غابت لحظات . عادت تحمل القهوة . استفسرت عن حالي وهي تصبها وبخارها اللذيذ يتسرّب لحلقي . أخبرتها أنني سمعت نصيحتها وغيرت سكني لكن ما يحدث لي مستمر .

ضربتْ على صدرها برفق ـ كفها صغيرة وأصابعها قصيرة :

ـ علاجك عندي . انتظر .

عادت تحمل بيدها زجاجة مملوءة بسائل أصفر . نصحتني :

ـ قبل أن تنام . رشه على فراشك . سيطرد شياطينك .

ـ هل تمارسين السحر أيضاً ؟

تدلّعت :

ـ احسبها كما تشاء .

وأنا أهُمُّ بالخروج التصقت بي متودّدة . ارتعبت . تخلصت بلباقة . أوحيت لها بوعدٍ كاذب ويدي تشد على الزجاجة :

ـ إذا نجح علاجك .

فررت تلاحقني ابتسامتها الآملة .

رغم عدم اقتناعي بهذه التُرهات . إلا أنني فعلت ما أمرتني به فلم تنجح التجربة بقدر ما أثارت الرائحة قرفي وحكاك جلدي .

www.mlazna.com-RAYAHEEN

عدت إليها . أعلنت فشل دوائها . اغتاظت وكأنني طعنتها بقدراتها . طردتني صفقت الباب بوجهي ولسانها يرعد :

ـ يا ابن الشيطان!

احترت بأمري . ضاقت عليّ حياتي ، الذي يحدث لا يتوقف . فقررت ألاّ وسيلة للهروب منه إلاّ بمقاطعة النوم ما دامت تلك الكائنات تستغل نومي . احتسيت عشرة أكواب من الشاي والقهوة . صعّدت صوت الراديو . تركت النور مضاءً فوجئت بضوء النهار يوقظني . لقد نمت وحدث الذي يحدث كل ليلة .

لاحظ زملائي اضطرابي واعتلال صحتي . بعضهم حاول استغلال الموقف .

ـ يا أخي أنت كثير المناكفة . تزعج مرؤوسيك . تعارضهم . وتنقّب عن أخطائهم .

نفثت غضبي :

ـ هل تريدني أن أوافقهم على ما يفعلون . ويطلبون ؟ ؟

أرعش أصابع كفه في وجهي :

ـ يا رجل هكذا تسير الأمور في مؤسسات الدولة . هل تريد أن تصلح العالم ؟ ؟

بكبرياء أجبته :

ـ إن كنت لا أستطيع إصلاح العالم . ففي الأقل أحافظ على صلاح نفسي .

هزء :

ـ لنرَ إن كنت ستصمد .

تحديته :

ـ سترى . المهم أن أنام مرتاح الضمير .

شمت بي :

ـ وهل أنت قادر أن تنام مرتاح الجسد حتى تفكر بضميرك ؟ ساير الأوضاع ترتاح!

لم أجد الراحة أبداً . في النهار مضايقات . محاولات لخنق عنقي في ذات الزجاجة التي اختنقت بها أعناق غيري من الضعفاء . وفي الليل يحدث لي ما يحدث . وإن كانت وسائلي في مقاومة أعداء النهار تنجح إلى حد ما ، فإن كل وسائلي التي جربتها لمحاربة كائنات الليل باءت بالفشل .

من أين تأتي ؟ لِمَ تختارني ؟ وإلى متى ستستمر ؟ ما أكاد أدخل دهليز النوم حتى ألمحها . تزحف نحوي . ثم تعجل بخطواتها . وطيرانها . «بق . نمل . عناكب . صراصير . شرانق . سحالي . ديدان» . وأشكال أخرى غريبة لا أعرف أنواعها . ولا أضبط ألوانها . تفترس جسدي أكواماً فوقها أكوام . تندس في أضيق الثنايا . فتحات أذني . ومنخريّ . تحت إبطيّ . داخل شعري . في سُرّتي وبين أفخاذي . تدلق سوائلها اللزجة . تصدر أصواتها المتنافرة . تلقي أوامرها بلا رحمة :

«وقّع هذه الأوراق . مزّق هذا الملف . أضف معلومة هنا . ورقماً تسبقه عشرات الأصفار هنا . احن هذا الرأس ـ اليابس ـ امسح أفكارك الغريبة . غض نظرك عمّا ترى وتسمع . أخفض صوتك العنيد . قدّم الولاء والطاعة» .

تتعالى الأصوات حتى تتحول صراخاً باهظ القسوة . أحاول الدفاع عن

نفسي رغم أنني مبذور بلا حول ولا قوّة تحت الأكوام . لكنها بقوة تضاهي ألف حصان تنتهكني .

يتفجر شبقها المجنون . تضاجعني من كل الأمكنة . تؤلمني . ترضرض أطرافي ، تسحقني . لا تغادرني إلاّ حين أصل أعلى درجات الإنهاك . وأتحول مجرد خرقة بالية ممزقة .

كان لا بد أن أجد حلاً ينتشل ليلي من هذا النهش القاهر . ويعيد توازني الذي بدأ يترنح بسبب قلة النوم وتشوّش تفكيري الذي لم يعد يصب في اتجاهاته المفيدة . أصابني الهزال والارتباك حتى بدأت أخشى على نفسي من عاهة أو جنون محتوم .

أخذت إجازة لمدة أسبوع قضيتها أفكر . تحوّل رأسي إلى ـ موتور ـ يشقلبني بدائرته فأبحث عن مخرج ملائم قبل أن تُطحن عظامي . شحذت كل طاقتي لأنجو . قاومت . تصبّرت تحمّلت .

فجأةً هدأ كل شيء . قبضت على قناعة ـ رغم سذاجتها ـ إلا أنها الحيلة المناسبة للخروج من المأزق .

إذن : أنا رجل غير عادي . رجل مشبوه . «بنظرهم» . وما هذه الكائنات سوى أشباحهم النهارية تتسلّط عليّ . حتى تولّعت بي حقيقة . وعليّ أن أبادلها الولع ـ فلا يُفترض بالمعشوق أن يرفض مداعبات وشهوات وأوامر عشاقه حتى وإن وصلت حد الأذى ـ على أن لا تمس القناعات المترسخة . سأعترف لكم بشيء غريب . منذ أن استسلمت لهذه القناعة التي ـ قد ترونها باهتة وغير منطقية ـ توقف زحف الكائنات الحقيرة . وانتهى الذي يحدث كل ليلة .

١٩٩٧

حلم غير قابل للكسر

ظلت رغبتي أن أدعوه ذات ليلة إلى جولة في السيارة . نهيم في شوارع المدينة ، نحتسي قهوة طازجة . نلتهم دخان سجائرنا المختلفة . نستمع للأغنيات القديمة التي تعجبنا . نتسكع في أزقة المواضيع . نفتح أحزاننا وأفراحنا ، نتبادلها ونستريح .

رغبة محمومة لا تجرؤ تصل إليه ، كأشياء أخرى كثيرة تموج بخاطري كلما التقيته . بعض شوق يسكنني يتنامى حين ألمحه ممتداً بقامته أمامي ، أو جالساً يحتسي قهوته ساهماً في خيالاته... وكلمات تكاد حين يجالسني لحظة ، أن تشق باب قلبي وتفر إليه كعصافير ممتلئة تهمس الشبع في أذنيه . تلتصق بقلبه وتعترف بأنه أصبح أثيراً لديَّ ، وأنه يستوطنني منذ شهور . ويحتكر ساعات ليلي ، أحلم به مُحطّمةً بأحلامي كل الحواجز التي تفصلني عنه حين ألتقيه .

لم أجرؤ قط أن أدعوه خشية أن يصدمني رفضه فيموت بداخلي أمل بدأ ينبت كعشب أخضر في مساحات قلبي الجافة . لم يخطر ببالي مطلقاً ، أن المصادفة تكون قوسَ قُزَحٍ يزف ألوانه الفَرِحة إليَّ في تلك الليلة التي بادرني فيها بلطف شديد أن يوصلني إلى البيت .

www.mlazna.com-RAYAHEEN
www.mlazna.com-RAYAHEEN

لم أصدق حتى اللحظة التي أغلق فيها الباب بعد أن زففتُ نفسي إلى مقعد سيارته المجاور ، وحتى اللحظة التي أستراح فيها خلف المقود . رحب بوجودي . صوته لا يخفي شعوراً بالارتياح . وأنا!! تنتفض عروقي . تكاد تنزف دمي أمامه . أشعر بجوع مفاجيء وكأن الفرح قد استنزف كل ما أكلته خلال شهور .

هو بقربي ؟ أو أنا التي بقربه ؟ لا يهم . ما دامت الحياة أخيراً تهديني بعض حبوبها الغنيّة .

الفرح ينبش نفسه ويزهر حتى وجنتيَّ فتدفأان ؛ حتى عينيَّ فتتدفقان بضحك أطفال ترفعهم أراجيح الأعياد وتنزلق .

برفق يضغط على دواسة البنزين ويمضي . وأنا! أثرثر باعتذاراتي السخيفة أنني أزعجه . فيرجوني بلطف ألا أتصور ذلك ، وأنه سعيد حقاً أن أكون بجانبه .

تغمرني رعشة ولذة . أتمنى لو يطول الطريق . تنعدم النهايات والحدود تترك لي زمناً أحقق فيه رغبة أغذيها منذ فترة بالأمل خشية أن تكسل أو تصدأ .

هو صامت . الراديو أيضاً صامت . توقعته حال جلوسه ، يمد أصابعه ، يدس شريطاً ينثر رحيقاً «فيروزياً»... قد تسطع أغنية تعبر كلماتها ولو قليلاً عن مشاعري القوية التي لا أدري بالضبط متى فاضت أمطارها وكادت تنذر بطوفان .

صامت!

يفتتني الصمت . أطلق بضع كلمات يجيب عنها باقتضاب . أود لو

تغلبني شجاعتي فأطلب منه أن ينسى طريق البيت ويظل تائهاً معي في الشوارع ، نبحث عن شارع قديم تفوح منه عطور زمن ودعته وما زال لا يودعني . لكنه يمضي في الشوارع التي تخترق أضواؤها العتمة . فتضيء داخل السيارة ، وقلبي يضيء . لم يكن يهمني أن أتأمل أي شيء يتبعثر حولي ، ربما كتب ؟ أو أفكار غير مكتملة الولادة ؟ أو ألعاب أطفال منسية... وربما إيشارب امرأة فيه رائحة عنقها أو صدرها . حتى خارج السيارة! لم يهمني أن أراقب أي شيء ، لا الأشجار التي تنام واقفة يرعشها البرد . ولا السماء التي يتربع فيها قمر يختال بين عشيقاته النجوم . ولا البحر الذي تتكيء أمواجه على صدر الرمال . شيء واحد فقط كنت أدفع باهتمامي وتأملي نحوه : شيء يتمدد... يتمدد... وتفوح رائحته الشهية تدوخني فيتسع مدار الرغبة أن أقترب . ألامس الكف . أشدها إليَّ أبللها بندايَ . ألصقها بصدري . أتزود من دفئها لصقيع قادم .

صامت!

ضباب صمته ينتشر . ينبت غابات شوك تتجدل أغصانها حولي ، أحس وخزها الأليم . أتمنى لوأقلعها شوكة شوكة حتى لو أدمت أصابعي كلها . وأقذفها إليه ، وقد يتألم يصرخ يبحث عن مأوى لجراحه فلا يجد غير عمري يرتمي عليه . لكنني لا أجرؤ ، لا شيء يشجعني ، وهو رغم رقته ودفئه يبدو كتمثال من الحجر ، أخشى إذا اندفعت إليه أن يكسر صلبه رأسي وتفتت حجارته مشاعري . آه... لو يحس بألمي! لو يقطفني من شوكي ، لو يفهم كم اقتاتت رغبتي من ليالي أرقي وشوقي إليه بانتظار أن يتحقق حلمي . ونكون ذات يوم وحدنا ، وتكون كفه التي تلامس آلاف الأشياء لي وحدي أداعبها . ألحس تعبها . وأتركها حديقة مفروشة بالقرنفل . لماذا هو صامت ؟ لو

أعرف بماذا يفكر! ما الذي يشغله عني وأنا المشغولة به ؟ لو أخترق المسافة إلى عقله ، إلى قلبه ، إلى عمق مشاعره ، فلربما ألقاه مثلي يصارع رغبته ويكبحها لأنه أيضاً يحسني كما وأحسه تمثالاً من الحجر يخشى الاقتراب منه . أقطع صمته . أهمس :

ـ تقود ببطء . أما أنا فقيادتي طائشة .

صوته الرقيق :

ـ لا أحب السرعة . ثم...

وأطلق ابتسامة تلألأت قبل أن يضيف :

ـ أريد أن أطيل الطريق وأنت معي .

مجاملة مهذبة تمنحني الفرصة . تشرع أبواب الأمل كي أدعوه يواصل الطريق . يبحث عن بيت قديم لم يبق منه سوى شجرة وحيدة صامدة . نختبىء تحت سكونها . فأحتضن كفه بحرية ، أدفق عليها بعض حرارتي ، أبث في صمتها الحياة ، أبللها بدموع تشبه تلك التي نزفتها طفلة تنام وظل أمنيتها يغمرها أن تمتد كف أبيها إلى وجنتها تربت عليه بحنان ، وإلى شعرها تربطه بشريط الأعياد .

أستدير إليه كلي ، مشحونة بشجاعة مفاجئة . في اللحظة ذاتها كان يمرر كُمَّ «دشداشته» ويسقط عينيه إلى ساعة يده فانكمشت عقارب شجاعتي المتحفزة . وبغباء تصورته تذكر موعداً آخر يهيىء نفسه ليعتذر لي . فبادرت ، ابتلعت شجاعتي ، وفرطت باللحظة .

صامت!

يقطع صمته بين لحظة وأخرى بكلمة . أو تعليق . لا شيء منه يرد

روحي . لو كان يملك بعض إحساسي الكبير به لعرف كيف يبادر . ليس من رجل لا يعرف أن أول لحظات الحب تبدأ بلمسة كف تعرش بعد ذلك عنباً فوق الوجنات ، وكرزاً أحمر بين الشفاه . لو كان لديه بعض رغبتي لما ترك كفه تتجمد فوق المقود بينما دفء كفي بالانتظار .

مجنونة أنا ؟ أم تراني أبني أحلاماً فوق الرمال ؟ موجة واحدة تدفق بهدوء كفيلة أن تهدم أكبر القصور . عليَّ أن أكون رحيمة بقلبي ، بمشاعري ، بأحلامي .

طريق البيت يقترب . وأنا! أتمنى لو أقترب منه . أفتت جليده ، أحطم أصنامه . أرتمي على كتفه . أشم عرق الشتاء يبلل عشب جسده . أجذب وجهه نحوي . وأفجر بركاني على شفتيه . لكنني جبانة لا أجرؤ . والخيبة بداخلي تكبر . تفرش ملاءتها السوداء فوق روحي . والحلم مثل مرآة يتكسر . لكنني رغم ذلك أقبض عليه كي لا يتبعثر . ربما يسطع أمل جديد . كلمة جديدة منه تلملم بقاياي . تنصرني على ضعفي فأرتاح .

توقفت السيارة . حلمي لا يتوقف . ينطق به لساني والخوف يملؤني أن يرفض دعوتي :

ـ تشرب معي فنجان قهوة ؟ ؟

تردد . طاف بوجهي حزن ربما لمحه فأشفق عليَّ ولبى الدعوة . تبددت غيومي السوداء . انفتح باب الأمل في اللحظة التي ترجل وأغلق باب سيارته .

البيت دافىء كقلبي . والقهوة تأتي يتصاعد بخارها ، رائحتها التي تشبه الرائحة حبيب يأتي متعباً فيتسرب عرقه الصيفي إلى خلاياي يثير شهيتي لوصل حنون .

لرائحة الآن تفتح نافذة أعبر منها إلى كفه التي أحلم بها . لكنه يرتشف القهوة ولا يشعر بأحلامي . تأملت فنجاني . نظر مبتسماً :

ـ هل تقرئين الفنجان ؟

اندفع حلمي وفرحي إليه :

ـ بل أقرأ الكف .

مد كفه . في لحظة تحولت إلى كمان حزين . يدي المرتعشة شوقاً امتدت إلى الأوتار الرقيقة فيها . فاح لحن سماوي بمقدوره أن يرقصني . يثيرني لأفعل ما أشتهي . لكنني تأملت الكف . طويتها وهمست :

ـ ليس الآن .

غباء آخر أقهر به قلبي . وأنا مبعثرة الشعور ما بين الرغبة والامتناع . شعرت بالمكان رغم دفئه غير مناسب . أريد مكاناً آخر تفوح منه عطور تليق باللحظة . أريد عطر بحر ، بيت شعر ، شجرة «بمبر» ، تنور خمدت ناره ، أو عش عصفور مهجور . فللأحلام أمكنتها الخاصة التي تولد فيها كالأعراس .

لم ألمح في وجهه أسفاً ولا خيبة ، وسؤاله البارد :

ـ لماذا ليس الآن ؟ ؟

هل يتغابى أم يستفزني لأنطق ؟ هل أصدق أنه لم يجرب القراءة دون كلام أو أن امرأة لم تعشقه ذات يوم فتتحول طفلة ترضع حليب أمها الشهي ؟

حلمي انكسر . أدرك أنني سأكسره عشرات المرات قبل أن أجرؤ . ابتسم . شعرت ابتسامته ترتاح لضعفي ، أو تشمت به ، أو ربما تنتصر لخلاصه من مبادرة يخشى عواقبها .

استأذن بذوق شفاف ، فابتلعت علقمي وأنا أودعه . وأسرع له الباب . كانت السماء متدثرة بالغيوم ، غاب وجه القمر وعشيقاته النجوم . لم تبق سوى نجمة واحدة تضيء ، ولا تذوب في السماء الباردة . وكأنها حلم غير قابل للكسر .

١٩٩٥

www.mlazna.com
^RAYAHEEN^

نبتُ الظهيرة

عيناه تتركزان على الرجل الغارق بأوراقه . يحاول أن يلتقط بعض ملامح الوجه الذي تحجب الغترة نصفه . رائحة بخوره الثمينة تفوح . يتماوج نسيمها إليه ينعش أنفاسه . أخذ يستعرض طاولة المكتب الوثير . ملفات .كتب . أظرف فارغة ؛ أخرى حبلى بالمحتويات .

أقلام بعدة أشكال وألوان ، علب سجائر . منفضة أنيقة مكتظّة بالأعقاب . تمثال صغير لحصان ذهبي جامح . محفظة جلدية . مجموعة هواتف وأجهزة أخرى دقيقة لا يعرف وظائفها .

حطت نظراته على يد الرجل التي توقع بخفة على أوراق وشيكات جاهزة ، لمح خاتماً جميلاً يبرق في إصبعه . ساعة ذهبيّة تضغط على رسغه الممتلىء . يد نظيفة . مقلّمة الأظافر . انتظر بقلقه تتخاصر في قلبه الخفقات حتى ينتبه له الرجل . وحين طال انتظاره اضطر إلى أن يصدر نحنحة خفيضة . رفع الرجل رأسه تفاجأ به . صوّب سؤاله :

ـ من أنت ؟

خطف بنظرة راعشة ملامح الوجه . والصوت يستحثه بالأسئلة :

www.mlazna.com-RAYAHEEN

ـ كيف دخلت ؟ منذ متى وأنت واقف ؟

لملم كلماته المتعثرة :

ـ السكرتيرة سمحت لي . قبل أمس حدّدت لي موعداً .

ابتلع الرجل ريقه . دق بالقلم على رأسه كمن تذكّر :

ـ آه . صحيح . قلت حاجتُك عندي . يا ترى « شنهي » ؟

تأتأ لسانه . يغمره اضطرابه :

ـ أمي تسلم عليك . تقول شغلني عندك .

تناثرت الضحكة عالية من الرجل ، مازحة :

ـ هذا أمر عسكري ؟ من تكون أمك ؟ الملكة إليزابيث ؟

بإنكسار أليم نطق الاسم :

ـ أمي عوّاشة ؟

صك الرجل بين حاجبيه كمن يحاول التقاط شيء .

ـ أيّ عوّاشة ؟

بعجالة :

ـ بنت « شعيبة الخبازة » .

شعر وكأن كفاً سوداء تلّوح أمام عينيه ؛ تفرس في الوجه بهدوء وهو يداعب قلمه :

ـ من أبوك ؟

بهدوء محتقن بالخجل . دفع الشاب إجابته :

ـ تقول أمي .

إذا تذكرتها تعرف اسم أبوي .

لطمته الكف السوداء . نثرت لونها في فضاء عينيه . شعر وكأن ريحاً عاتية تكاد تقتلعه من كرسيه وتطوّح به من النافذة . خبطت كفاه المرتجفتان على الطاولة ، تطايرت بعض الأوراق . سارع الشاب . التقطها . أعادها بأدب حيث كانت . فاستراح الرجل وعيناه تلمّان وجه الشاب بإمعان شديد . أمره بهدوء وسأله :

ـ اجلس . ما اسمك ؟

ـ فرج .

ـ هز الرجل رأسه :

ـ زين . وأبوك ؟

قبل أن يفتح الشاب فمه كان الرجل يدق بسبابته فوق رأسه مردداً :

ـ آه . قلت لي إذا تذكرت أمك . أعرف .

أومأ الشاب يؤكد .

ساد صمت سريع . وضع الرجل كفيه تحت ذقنه . حدّق إلى الشاب . سأله :

ـ كم عمرك يا فرج .

ـ ثلاثون سنة .

ازدرد ريقه . رفع حاجبيه . اتسعت عيناه . سرح ثم عاد وكأنه قطع شوطاً في الغياب . سلط نظرته على الوجه الماثل أمامه . تفحّصه بدقة .

وسوس بداخله : «العينان الواسعتان عيون أمه ـ الملعونة ـ أنفه . شفتاه . طبق الأصل مني . «الكلبة» كانت تحب شفتيّ تهرسهما بين أسنانها . تستلذ طعم دمهما . تغسلهما بريقها . تشهق بنشوتها «يا حلو حلجك» . آخ . أنتّ إذن ابن عوّاشة!»

انتبه لصوت فرج يوقظه من رحيله الطارئ :

ـ راح تشغلّني ؟

تشاغل بترتيب الأوراق أمامه . اغتصب لصوته رنة هادئة :

ـ زين يا.....

أسعفه :

ـ فرج . اسمي فرج ولد عوّاشة بنـ ... ...

قاطعه :

ـ زين يا فرج يا ولد عوّاشة . «وين وشِنو» كنت تشتغل ؟

طأطأ . ونبس :

ـ فرّاش في وزارة . لكنهم «فنشوني» . من شهور أنا من غير شغل . ما أحد يرضى أن يشغّلني .

كمن حاول إدانته :

ـ ليش ؟ لك سوابق ؟

رادّاً عن نفسه أي شك . بسرعة نطق واثقاً :

ـ لا والله . وإلاّ ما كانت أمي «طرّشتني» عندك .

بداخله : «طرّشتك أم هي تفرض أمرها» ضاقت أنفاسه . شعر وكأنه

يهوي إلى قاع بئر ويسمع دوّي ارتطامه في العمق . واضح أنها ما أرسلته إلاّ بعد أن ضاقت بها الدنيا . أين كانت كل هذه السنين ؟ والأمر لا يخلو من تهديد مبطن بالرجاء» .

تعاركت أمعاؤه . كادت تسرب عصائرها تحته . ضغط جسده على الكرسي . انتقل العراك لمعدته . لاب بها غثيان وكأن السوائل ستطفر من بلعومه . تذكرها . حقد عليها وأمنيته بداخله : «لو كانت هي التي أمامي . لمزقتها بأسناني» .

تماسك . نمق صوته والكلمات :

ـ شوف يا فرج . سلم على أمك . قل لها تمرّتي باكر .

اهتزت أوتار صوت فرج :

ـ عسى راح تشغلني ؟

أومأ مهدئاً :

ـ أول لازم أشوف أمك .

باستسلام :

ـ حاضر .

أشار له بلطف نحو الباب :

ـ مع السلامة يا فرج .

عندما أغلق الباب خلفه . خُيّل إليه أن باب جهنّم يُغلق عليه . ترك مكتبه ، هرع إلى الحمّام . خرج كالدانخ . تهاوى بجسده على الأريكة . ريح عاتية تهاجمه ، زم عينيه ، صك على أذنيه . ودّ لو يصهر صورة فرج .

www.mlazna.com-RAYAHEEN

وصوته . لكن الصدى تردد لحوحاً : «ولد عوّاشة . ولد عوّاشة» .

عجلات الدنيا تدور . تنبش الأرض وتُخرجُ ديدانها . الماضي يشق أسترة الزمن . ويعود بها . تقدم له خطيئة الحب الأول . عوّاشة التي ظل يحفظ اسمها . يتذكر أيامه الحلوة معها . يسترجع دفء مشاعرها . طعم شفتيها . رائحة عرقها الوهاجة ولآلىء جسدها البكر . تصور السنين ابتلعتها . وذوبت ذاكرتها . ها هي تعود . فيستعيد ذلك النهار الأول .

* * *

ظهيرة حارقة من ظهيرات الصيف تزفر غليانها . وحده كان في غرفة الدهليز ، عاري الصدر . نصفه الأسفل مستور بوزار مبلل بالماء . لم تكد عيناه تدلفان إلى الإغفاءة الأولى حتى سمع طَرَقات باب البيت . تأفف . عاند . لكن الطَرَقات التي توالت ملحّة أجبرته .

قام ممتلئاً بالحنق . فتح الباب نط وجهها الأسمر . تتلألأ عليه قطرات الصيف اللاهب . اندفعت إلى الدهليز تحتمي من الشمس . انزلقت عباءتها . تماوج شعرها كبحر أسود .

انزلقت غرّتها المنداة بالعرق وكأنها انفصلت عن موجاتها الأم . صفق الباب بحدة . شدها من ذراعها النحيل . هرسه . تأوّهت . كزّ على أسنانه :

ـ منو أنتِ ؟

حاولت تحرير ذراعها . صوتها مرتجف :

ـ عوّاشة .

هازئاً رفع صوته :

ـ و«خير يا طير» ؟ ؟

تلكأت . صرخ . ناثرت إجابتها :

ـ أمي... طرّ... شـ... تـ... ني .

ساخراً :

ـ ومن هي أمك إن شاء الله ؟

ـ شعيبة . شعيبة الخبازة .

حك ذقنه :

ـ وماذا تريد أُمك «شعيبو الخبّازة» ؟

توسّل صوتها :

ـ الله يخليك . أريد أم خالد ضروري .

دنا منها . صدره العاري المنثور بالشَعَرْ واجهها . التصق بالحائط . ابتسم :

ـ أنا ولدها خالد . ما أنفع ؟ ؟

أسدلت نظراتها . تبعثر خجل جميل فوق المحيّا . رجفت الشفتان . انتظرت وشعورها أنه يحرثها بنظراته . ينفضها كريشة .

نظراته حامت على كل الوجه . عينان واسعتان . حاجبان دقيقان يلتقيان كسيفين . أنف دقيق . شفتان مكتنزتان . فوق جانبهما الأيمن شامة بحجم حبّة «البَنَكْ» .

انحدرت عيناه إلى العنق الأملس . الصدر الصغير يعلن بداية تفجر الصبا .

أحسّت عينيه الجريئتين تعريّانها . شدت عباءتها حول صدرها . رفعت

عينيها لترجوه . فكهربته النظرة . لعق شفتيه . عابث شاربيه الخفيفين بينما تداعبه رعشات كحبات مطر تنهمر في عروقه .

صوتها رقيقاً :

ـ اللّه يخليك . نادِ أمك .

ـ أمي نايمة .

ـ « أبيها » ضروري .

خبط برقة على صدغها :

ـ زين . سأناديها . انتظري .

مضى يقطع الدهليز . تقافزت نظراتها . تستعرض الجسد الطويل . الظهر العاري بلون النحاس . فاجأها مستديراً وإصبعه محذّرة :

ـ انتظري هنا . ليس في الغرفة .

أومأت بالطاعة . اهتزت شعيرات غرتها الملساء .

جلست على الدكة المغبرة . تتسلى بالنظر لمحتويات الدهليز . أقفاص صغيرة ذائبة فيها العصافير . في الزاوية خيشة فحم . سحارة فيها خبز يابس وزجاجات « فيمتو » قديمة . على الحائط مجموعة من المسامير غير المنظّمة . تدلى مفتاح طويل من أحدها . وحبل ثخين لُفَّ دوائر على مسمار كبير . في الجانب الآخر تدلى « عذق رطب » يحوم حوله الذباب ويحط . رفعت بصرها إلى السقف . بين فتحات الجندل بنت العناكب بيوتها ، ولبدت بعض حمامات صغيرات . على أرض الدهليز حصير ملوّن ، ريش متناثر ، بضع دودات خاملات ، وكومات غبار متفرقة . ركزت نظرتها على كومة النمل الأسود تنهش جسد صرصور ميت . شعرت الدبيب يُنمّلُ جسدها .

مسحت بطرف عباءتها حبيبات عرق تجمعت فوق الجبين . عضعضت شفتيها لتبلل جفافهما .

لوت رأسها باتجاه الحائط يداعبها النعاس . تيقظت حين تناهت طرطقة القبقاب إليها . وقفت تستعد لأم خالد ، التي تقدمت ابنها ثقيلة الحركة . تضع فوطة مبللة فوق رأسها . اقتربت منها بمودّة وسؤالها الملهوف :

ـ خير يا بنتي .

كان قد دلف إلى غرفته . ومن شق الباب يسترق السمع والنظر .

ـ أمي محتاجة مبلغ و...

قاطعتها :

ـ أمك هداها اللّه لا تسمع الكلام . قبل يومين عرضت عليها . ورفضت .

بعذوبة وصدق :

ـ ما كانت محتاجة له . اليوم « انجبرت » سترده في أ.....

ربتت على خدها :

ـ عيب . الناس للناس . ترده متى انفرجت . انتظري .

لم ينتظر تغيب خطوات أمه . أوسع شق الباب . اخترق وجهها . غمَزَ . ابتسمت عن أسنان كحب الرمان . وارت وجهها . صَفَرَ لها . لم يقاوم ويعرض عليها :

ـ كل يوم تعالي . وأردف متلذذاً بالكلمة « يحليلك » .

في الليل غازل الوسن أجفانه . تهادت أمامه بين الحلم واليقظة . تيقظت

كل رغائب جسده . محتاراً أخذ يلوم نفسه . كيف لم يرها قبل اليوم ؟ كم مرة كان يعود من «حفيز» أبيه . يدق باب أمها البصراوية . يستلم خبز الرقاق و«قرس العقيلي» . كيف لم يفطن أن حلوى أخرى مخبأة عن نظره . ومذاقه ؟ حوّمت طيور الأمل في صدره ، ملأت قلبه بعطرٍ فاح حتى عينيه .

صار الذهاب إلى بيتهم مناه الدائم . بدأ يغازلها بعينيه كلما دق بابهم . كانت تمد كفها تناوله الخبز من فتحة الباب الضيقة . ومع الأيام أفرجت الفتحة ثغرها لتسمح بلقاء غير لقاءات العيون . جرؤ أن يمسك كفها يعصرها ثم انتعشت الأنامل تداعب خدها وشامتها . وحين غيّم دفء الرضا ، تسارقت شفتاهما القبلات العابرة ، استبد به الوله . الزمان الذي كان جافاً تبلل بندى الأحلام . ترطب بالحنين ، تهشّمت بقايا الخوف . حرضها :

ـ تعالي في «القايلة» .

احمرت وجنتاها . فزعت طبول قلبها . رقص الوعد .

شهدت غرفة الدهليز ميلاد الخطيئة . تدحرجها الظهيرات إليه كبندقة . تكسر قشرتها ، تنفتح النوافذ مشعةً بأفراحها . تبدو التفاحتان رطبتين . ويلتمع قمر حلمتها البنّي .

وتلك النجمة المندسة في سماء البطن الأسمر .

يتناجيان . يتلاطفان . ويستسلم الجسد المرقرق بأريج العاطفة لمزيد من النار .

التهبت أغصان الشجرة البكر . ولم تحتمل الحريق . سمحت له يطفىء النار . يقشر اللحاء . يرمي البذار ، ويسقيه .

في البدء استلذ مقامها في روحه . صارت الحلوى التي يلحس سكرها .

يلتهم حشوتها اللذيذة . يشبع . وقبل أن ينام يستعيد الحلم الذي أسرى به إلى الجنة . لكنها في الظهيرة الأخيرة . فاجأته متشحة بالحزن . تنوح أمامه بمصيبتها .

نتأ الرعب من عينيه . دفق غضبه ضربة على الصدغ الرقيق . حين أنّت بألمها فاض قلبه بالشفقة . لكن الخوف من الفضيحة كانت له الغلبة . طاش بسؤاله المتوحش :

ـ ماذا أفعل لك ؟

تهدج صوتها . منكسرة ترجوه :

ـ تستر عليّ . الله يخليك .

فوجىء بطلبها . غزته رعدة . زجرها :

ـ مجنونة! أهلي لو عرفوا يقتلونني .

شنت عتباً لا يخلو من احتقار :

ـ رجل وتخاف ؟

اهتاج :

تحسبين الأمر سهلاً . هل سيرضى أهلي أتزوج بنت شعيبو البصراوية ؟

ـ لكنك تحب بنت شعيبو .

رمقها متحدياً :

ـ أحبك . لكن الزواج . لأ .

ساطها الألم . التهمت الصفرة بقاع وجهها . هرولت دموعها ذليلة . حلّفته بالظهيرات الحلوة . أهرقت توسلها فوق صدره . على كفّيه . وعند قدميه سحقت وجهها .

www.mlazna.com-RAYAHEEN

لثمتهما ترجوه لكنه تخشّب أمامها . زائغ النظرات . مرتعش الأطراف . صوتها ينوء بحزنه :

ـ ماذا أفعل ؟ ؟

اقترب منها . مد كفّه ، كوّمها قبضة وسددها إلى بطنها . ضرب البيضة لتفقس .

تأوّهت . صرخت . كتم فمها . كان صوته حاداً :

ـ تتخلصين منه . وتسترين على نفسك .

ارتعدت . حرست بطنها بكلتا اليدين . نزفت دموعاً حمراء :

ـ تريدني أموت ؟

أرجفته الكلمة . أوجعه قلبه . خاف عليها . أجلسها . هدأها . قدم لها الحل :

ـ اسمعي . تعرفين «أم إسعيد الولاّدة» روحي لها . تخلصك .

أطلقت شكها :

ـ يمكن تقول لأمي . أو تفضحني «بالفريج» .

أكد لها :

ـ هذي واحدة تحب الفلوس . شوفيها كم تطلب . أعطيك .

فرش الخذلان سحائبه السوداء . لم تسفر محاولاتها غير الخيبة الوجيعة . هو يتخلى عنها . يقذفها تواجه مصيرها والخطر وحيدة . يتنكّر لبذرته . نظرت إليه ، تأسّف صوتها :

ـ حسبتك رجلاً .

سحبت قدميها . خائبة اتجهت نحو الباب . صوته يؤكد ويهدد بقطع الوصل إن هي فكرت تبوح بالسر . حبها له جعلها تعده بالكتمان . خرجت مرتوية بالعلقم .

غابت عنه . ظل متحرقاً عودتها تزف إليه بشرى الخلاص . تحرره من الذنب والوجع . لكن الغيبة طالت . تسرّب إليه خبر رحيلها وأمها عن البلاد . بكى تلك الليلة بكاء لا يعرفه الرجال .

أقفرت أيامه . تجعّدت لياليه . عاقر الوحدة . وفي صميم الليل يذبحه صليل الشوق لنرجس روحها ، وقطاف جسدها . تعرج عليه بأحلامه تمنحه الوجد واللذائذ . ثم تسوطه بلومها ولسع تجريحها لرجولته . تفر منه . تتركه في سحيق العذاب . ظلت صورتها المستعصية على النسيان نائمة في قلبه . يتصورها وقد أوفت بالوعد . وخلصته من نبت الظهيرة .

* * *

زعق جرس الهاتف .

ما يزال مطروحاً فوق الأريكة . أثلام الماضي تجرحه . وتُهطل عند أبوابه الحمم . حلقه يفوح طعم المرارة والجفاف . تناول كوب الماء . أفرغه بلا توقف داخل جوفه . اشعل سيجارة . النار تلهبه . تفجر حقده عليها والأفكار تجلده : «بعد كل هذه السنين . تقذفه أمامي رجلاً . ماذا لو كانت تنوي تفضحني ؟ زوجتي وأولادي ، كيف سأواجههم ؟ أبوهم . رجل الأعمال المعروف . المحترم . له «ابن زنى» اسمه فرج : يا فرج الله : صبّرني إلى الغد . ستأتي وأعرف نياتها المطوية .

للنظرة الأولى عنف يزلزل الكيان . حين دخلت شعر وكأن دود الأرض كله يتّحد زاحفاً إليه . أجراس إنذار تشهق . تفلق الجدران . تخترق عظامه .

هي أمامه متستّرة بالعباءة والبوشية . ليس بها شيء من عطرها القديم . «سينكر معرفتها ويطردها» .

لكن رائحة الماضي الذي يخافه خدّرت قراره اللئيم . لم يجرؤ برفع بصره إليها كان يخشى إن هو فعل تسمل عينيه بأظافرها . أشار لها أن تجلس . أصدرت تنهيدة متعبة . رغا لسانها بكلمات خفيضة تحمل معاني الشكر . «ما يزال صوتها ناعماً وحنوناً» . قال في سره ثم بادرها :

ـ ولدك يا عوّاشة جا... ... ...

قاطعته . لم تتهيّب تواجهه بالحقيقة :

ـ ولدنا فرج .

تجمع الدود عليه ، أفرز عصاراته . هرش جسده . خشن صوته . بصق غضبه :

ـ شوفي يا عوّاشة . تريدين لولدك عملاً . أنا حاضر . لكن تتبلّين عليَّ . لأ .

لم يردعها غضبه . واثقاً اقتحمه صوتها :

ـ تخاف من الحقيقة .

طرق بكفه على الطاولة . اهتزّت الأدوات :

ـ أنا غير ملزم أصدقها . غبت ثلاثين سنة . هل أعلم أسرارك وأفعالك ؟ هل كنت الرجل الوحيد ؟ ؟

نبر صوتها حاداً باحتقارها :

ـ كنت الرجل الأول اللي...

قاطعها :

ـ عندك شهود ؟

ـ الشاهد اللّه .

ارتفع صوته . هز سبابته بغضب في وجهها .

ـ سمعي يا عوّاشة . إن جئت تهددين ، وتثيرين الفضائح ، فلن أرحمك وابنك . أظن تعرفين أنني أقدر .

أخافها تهديده المباشر . رعف صوتها ذُلّه وحزنه :

ـ ما جئت أهددك . ولا أفضحك . يا حسرة من أكون حتى أفعل ؟ كل ما أريده شغلاً لولدي ، حتى يعيلني . ويكرم شيبتي حتى أموت . أعِدك . ما أفتح «حلجي» .

بداخله شعر ارتياحاً من ضعفها . لكنه أصر يشهر قوته أمامها ويؤكد :

ـ حتى لو فتحتيه . لن يصدقك أحد .

باستسلام قطرت كلماتها :

ـ أدري . حتى من ثلاثين سنة . ما كان أحد سيصدقني .

شعر بالانتصار . استل شهيقاً . ضغط الجرس . جاء العامل . أمره .

ـ ماي ، شاي للحجيّة .

سمع همستها مثقلة بأحجار الهموم :

ـ كثر اللّه خيرك .

فتح أحد الأدراج . أخرج زجاجة عطر . صب على كفيه . مسح وجهه وكأنه يتطهر من بصاق الدود . ألقى أسئلته متسارعاً :

www.mlazna.com-RAYAHEEN

ـ كيف رحلتِ ؟ أين كنتِ كل هذه السنين ؟ متى وليش رجعت ؟

تنحنحت . أحسها تختنق برشفة الشاي الأولى . أفرطت تفتح الدفاتر الملونة بالأسى :

ـ خفت أموت بين يديّ «أم سعيد» . كذبت على أمي . ادعيت أن رجلاً ملثماً اغتصبني في الحوطة . طار صواب أمي . أصرت ترجع إلى البصرة التي لا أعرفها . اختبأنا عند امرأة بنت حلال . سترت عليّ حتى ولدت . صار عمر فرج سنتين . دفعت أمي دم قلبها وزوّجتني من حداد شايب فقير . تعلق بالولد . أعطاه اسمه . رباه ثلاث سنوات وعطاك عمره .

بعدها خرجت أمي لأهلها بلا خوف من فضيحة . مرت السنوات . كنت أذوب حنيناً للكويت . ولك . أردت أن أرجع . رفضت أمي . أخذت فرج وهربت . عشت عند ناس أوادم بالجهرة ـ معرفة قديمة ـ ربيت فرج . خلّص رابعة متوسطة . واشتغل من مكان لمكان حتى استقر بوظيفة فراش . كنا عايشين ومستورين وقانعين حتى فنشوه لأنه «بدون» .

ذكّرها :

ـ ما قلت أن الحداد أعطاه اسمه ؟

أكدت :

ـ وجنسيته .

بلؤم واجهها :

ـ «خشيتيها» وقلت عنّه بدون .

بإصرار :

ـ ولدي «كويتي» . أنت تعرف .

صرخ وكفه تطرق على الطاولة :

ـ أمه ، وأخواله «عراقيون» . وجنسيته عراقية .

باعتداد :

ـ أمه وأخواله لم يتبرؤوا منه .

وحدجته بنظرة قاسية . هرب منها . عرج على الموضوع :

ـ المطلوب شغل لولدك ؟

عاد صوتها ضعيفاً :

ـ إذا كان انحرم من اسمك ، فلا تحرمه من خيرك .

وعدها غير غافل عن تذكيرها :

ـ أشغله وأعطيك مساعدة شهرية تحفظ كرامتك . شرط يظل الماضي مدفون .

همست :

ـ مدفون من زمان . لا تخف . صدقني .

يُصدقها . لقد وفت بوعدها الأول ـ لم تفضح لأمها سره ـ لكنه تنبّه لأمر آخر ، بتلهفة الخائف سألها :

ـ فرج . يعرف ؟ ؟

تنهدت :

ـ يعرف أنه ولد الحداد .

ارتاح . أشاع رقة الرضى في صوته :

www.mlazna.com-RAYAHEEN

ـ إنت بنت حلال يا عوّاشة . وقلبك طيب .

زفرت آهة :

ـ قلبي اللي حبك ما يقدر يكرهك . ما باليد حيلة .

ركز نظرته عليها . «هل تراها ما تزال تحبه ؟ هل الحب سر الصمت والخضوع ؟ أم هي قلة حيلة الضعيف أمام القوي ؟»

لطف صوته أكد لها :

ـ خلاص . من باكر خلّي فرج يأتي ويستلم الشغل .

رقص الفرح بصوتها ، واستعطافها :

ـ واللّي يسلمك . أجبر خاطره . ترى فرج أمين و«شاغول» .

بصدق شديد :

ـ ما يصير خاطرك إلاّ طيب . سأسلمه وظيفة ـ زينة ـ يستاهل فرج .

وأم فرج . قام إلى الخزنة . سحب مبلغاً . قطع المسافة إليها قابلها . سوّلت له نفسه . مدّ كفّه محاولاً إزاحة البوشية . استنفرت قوّة كفها تدفع يده . وصدر صوتها شرساً حد التوحش .

ـ لست عوّاشة التي عرفتها من زمان .

خطفت نفسها لتخرج . أدرك أنه أهانها . خاف تُوَلّدُ الإهانة شراً . وعناداً . أمسك بذراعها . أجلسها يطيّب خاطرها :

ـ ما قصدت يا عوّاشة .

رفعت بوشيّتها لتمسح دموعها وسيل أنفها . التقط وجهاً ناء عليه الزمان . ربضت عليه المواجع . تأسى لها قلبه . جاء صوته معتذراً :

ـ سامحيني .

لم يتردد . أحنى رأسه . قبل رأسها المنكس . فتح كفها بحنان . أدرك وهو يتلمس تجاعيده وخشونته عنف المرارات التي عانتها . دس المبلغ أكد لها :

ـ لن أقصّر . أي شيء تحتاجينه تعالي . أو قولي لفرج .

همست وما زال طعم دموعها يصاحب الكلمات :

ـ ما قصرت . عسى عمرك طويل .

أثلج الدعاء صدره . رافقها حتى الباب . فتحه متوارياً خلفه . صوته عابقاً بالامتنان :

ـ مع السلامة يا عوّاشة .

غابت . وطائر قلبها يفرح لفرج . وهو يغلق الباب . أحس دخاناً أسود يتبعها ، تنفس بأمان .

* * *

سنوات مضت . تفانى فرج وأخلص في عمله لدرجة أدهشت خالد . جعلته يفتح كل الأبواب له . منحه الثقة كاملة . سلمه أسرار العمل وكل صغيرة وكبيرة ، المفاتيح ، دفاتر البنوك ، الوكالات الخاصة والعامة يتصرف وكأنه صاحب الشأن دون تقصير أو خيانات . صار اليد اليمنى التي لا غنى عنها .

فتح له أبواب قلبه وبيته . أزهرت براعم حب ، تلألأت نجمات حنان بينه وبين أفراد الأسرة . لم يعد من شيء يخفى عليه غير ذلك السر الذي وعدت ـ عوّاشة ـ أن يظل مدفوناً في قاع القلب ، والأيام .

لكن خالد لم ينس . حب فرج وإخلاصه له يثير التساؤل في داخله : هل تنتصر المشاعر الإنسانية ؟ هل هو بر الابن لأبيه رغم جهالته بتلك الرابطة الأبوية ؟

كان يتذكر كل تفاصيل الماضي حين يلمع وجه فرج . يحس ألف جرس يقرع في قلبه ، تراوده نفسه أن يخطفه إلى صدره ، يمرغه بالقبلات يبكي ، يصرخ ، ويعترف له :

أنا أبوك يا فرج .

لكن الصرخة تجهض ورياح السنين تبعثر ألف قبلة حتى جاء ذلك اليوم .

غطت سحب الدخان سماء الكويت .

التهبت قوافل الرحيل متعثرة بدموع الفجيعة . وتلويحات الأكف التي تهدي وعداً بالعودة للبيوت الحزينة التي يغادرونها .

صوت زوجته الهادر لا ينوي السكوت :

ـ نخرج ، قبل أن يمزقوا أجسادنا .

غصة في أعماقه تستعصي على الخروج . ذهنه مشوش بعواصف الترقب . «لم يأت فرج ولم يتصل» .

جاء صوتها صارخاً :

ـ سأتصل بأهلي . آخذ أولادي وأخرج معهم .

هو غير قادر أن يقمع كل التصورات الخبيثة : «حلالي كله بين يديه وروحي بيد أمه» . التفت إلى زوجته لا يسيطر على ارتجافاته :

ـ يا بنت الحلال . ننتظر لنر ما الذي سيحدث .

زمجرت :

ـ لا أنتظر ولا ساعة .

يعذر خوفها . هو خائف أيضاً «يمكن عوّاشة تنتهز الفرصة . تعترف للولد . تحوله ذئباً لينهشني» .

هدأها :

ـ خلاص . نخرج باكر . «الروح ولا المال» .

لم يهدأ طوال النهار... كلما سمع حركة في الخارج تصور ألف مصيبة مقبلة إليه ، وكلما قرع الباب تخيل بنادق ورشاشات ستصب حممها إلى صدره وصدر عياله .

في المساء كانت الخطوات تقترب من الباب . زعق جرس الباب متلاحقاً . تطايرات زوجته وأولاده كل يبحث عن مخبأ . وحده واجه الباب والمصير .

وجه فرج . وجهان من جنود الغزاة . اختض جسده . كاد يقع . في غمرة الخوف أيقن بداخله «جاك الموت يا خالد» .

اندفع فرج ومن معه إلى الداخل . صفق الباب . شعر القبر يفتح ظلمته أمامه . غامت عيناه . ثقل لسانه . بالكاد أصدر الكلمات :

ـ خذوا كل شيء...

باتزان شديد . خرج صوت فرج الذي شد على كتفيه :

ـ هذول من معارف أمي في البصرة . لا تخاف . ستكون بخير إذا نويتم

تطلعون سوف يؤمنون خروجكم . ولا يكون لك فكر . مالك وحلالك أمانة في رقبتي حتى يفرجها الله .

تراخى جسده . غزاه اطمئنان أكيد . هو فرج الذي يعرفه . في لحظة تهاوت أمامه كل الأشياء الزائفة . المقام ، المال ، السمعة... العائلة . هو الآن أمام حقيقة واضحة غير قابلة للشك . «أصالة فرج ووفاؤه» .

هبت روحه لاهثة اختطف فرج إلى صدره . أحسه لؤلؤة معلقة في أغصان ضلوعه . هامَسَهُ فرج :

ـ أمي تسلم عليك . تقول . لا تخافون أنتم بعيوننا .

أيقظت الهمسة هناءة الحب القديم «عوّاشة بنت الحلال» .

نشج وبلل وجه فرج بدموعه . أسرت همسته تصب في اذنه كما القبلة «فرج يا وليدي . بارك الله فيك» .

١٩٩٧

www.mlazna.com
^RAYAHEEN^

الفهرس

ـ إهداء 5
ـ الحب في اللحظات الأخيرة 7
ـ للانتظار وجوه أخرى 15
ـ عورات امرأة 25
ـ موت الليلابة 41
ـ حلم الغياب 49
ـ آهة مرشوشة بالدم 59
ـ المشنقة 69
ـ رائحة الجسد... رائحة الرماد 77
ـ حلم الطواويس 85
ـ حالتان لشهرزاد 103
ـ الليلة ترقص شهرزاد 105
ـ الليلة تسبح شهرزاد 113
ـ آلام رأس المملكة 119
ـ يحدث كل ليلة 133
ـ حلم غير قابل للكسر 147
ـ نبت الظهيرة 157